التعرّف لمذهب أهل التصوّف

"لولا التعرّف لما عُرف التصوّف"

تأليف

تاج الإسلام

أبو بكر محمد الكلاباذي

قدم له وحققه وراجع أصوله وعلق عليه

محمود أمين النواوي

من علماء الأزهر الشريف

الطبعة الثالثة

١٤١٢ هـ — ١٩٩٢ م

المكتبة الأزهرية للتراث

محمد محمد إمبابي

القاهرة - ٩ درب الأتراك - خلف الأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ »

[قرآن كريم]

قال صاحب كشف الظنون عن كتاب التعرف :

« كتاب مختصر مشهور ، اعتنى بشأنه المشايخ ، وقالوا فى شأنه لولا التعرف ، لما عرف التصوف » .

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم حمداً كثيراً طيباً مباركا فيه ، حمداً يوافى نعمك ، ويكافىء مزيدك ، ونحمدك حمداً نتطلب به رضاك ومغفرتك ، لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ، ونحمدك يا مولاى كما أمرت وأحببت .

وبعـــد :

نشكر الله لناشر هـــذا الكتاب القيم ، فإنه كما سنرى كتاب يصحح أوضاع التصوف الأولى ويتحاشى كثيراً من بدع المنتسبين إلى هذا الاتجاه الأصيـــل الكريم . وإن كان قد صحت عزيمته على أن يقحمنى فى هذا الميدان الشريف الرفيع ، البعيد المدى على أمثالى من أطفال العلم والمنتسبين إلى شرفه الرفيع ، ولكنه لما صحت عزيمته بحسن طبعه على ذلك الإقحام ، رجوت أن يكون فيه جدلى ، واستصلاح لنفسى ، فبدأت ـ إن شاء الله ـ بكتابة مقدمة تتضمن إشارات عابرة إلى ما يأتى على الجملة

١ — كلمة عن مفهوم كلمة التصوف وبدئه ومزيته إذا خلا من البدع والشطحات .

٢ — التصوف المخلوط والتحذير منه .

٣ — أطوار التصوف التى مرت به .

٤ — كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف وأغراضه ومنزلته ومؤلفه

١ — فأما كلمة التصوف : فقد أجمع الكاتبون فى هذا المقام على أنها من الكلمات الاصطلاحية التى طرأت فى أواخر القرن الثانى للهجرة .

وكان السبب فى حدوث هذه الكلمة ووقوع مدلولها الذى سيتضح لك فى هذه الدراسة ، أن طائفة من خواص المسلمين تجردوا لعبادة الله سبحانه ، والزهد فى الدنيا التى تنافس الناس فى الحصول عليها ، وإيثارها على الآخرة وأعمالها الصالحة .

فهذه الطائفة الكريمة فزعت لما رأت من ذلك التحول عن الدين ، والانسلاخ عما كان عليه صحابة خير العالمين ، من مراقبة الله سبحانه ، وعدم الغفلة عن ذكره ، وإيثارهم لجوانب الخير ، مع أخذهم أنفسهم بطلب ما يحتاجون إليه من الرزق ، وإنفاقهم الفضل من المال فى سبيل الله ، فأخذتهم الغيرة على الدين ، والحرص على خلود معالمه بين المسلمين ، بأن يتداركوا أنفسهم ، وأن يأخذوا بطريقتهم ، تخلصا من ذلك التيار الدنيوى الخطير ، فيسلكوا مسلك النسك والعبادة ، ويلتزموا طريق الزهادة .

ثم غلب هذه الطائفة اسم الصوفية ، وعلى معنى التجرد الذى اختاروه لأنفسهم اسم التصوف .

وقد اختلف الباحثون فى أصل هذه الكلمة (التصوف) اختلافا يطول شرحه ، ولا نجد ما يدعو إلى الإطالة به لشهرته ، ولأن مؤلف هذا الكتاب قد عرض له على سبيل الإجمال . وقد تعرض له ابن خلدون فى مقدمته ، والسهروردى فى كتابه « عوارف المعارف » وغيرهم ، كما تناوله أستاذنا العلامة الشيخ محمد الخضر حسين التونسى شيخ الأزهر السابق فى الجزء الثانى من كتاب « وسائل الإصلاح » وغيره من العاصرين ، أخذاً من كتابات السابقين ، فليرجع إلى هذه المراجع من أراد الاستقصاء فى البحث .

وإنما الذى يعنينا أن نركز عليه ونوجه إليه ما تدل عليه هذه الكلمة من أوصاف ، ترجع كلها إلى مراقبة الله عز وجل ، وإيثار ذكره بالليل والنهار ، والسر والعلن ، والضراعة إليه سبحانه فى كل شىء ، والاستغناء به عن الخلق ، والزهد فى الدنيا لا على معنى كراهتها ورفضها بالكلية ، كما يتوهم كثير ممن لا تحقيق لهم ، ولكن على معنى عدم حبها والمنافسة فى طلبها ، وإيثارها على جوانب البر . ومن هذه المعانى كلها يحصل للنفس تهذيب ، ويتكون فيها خلق رفيع ، ويتحقق لصاحبها صفاء فى قلبه ، وعروج فى معارج الإدراك ، وفهم للحقائق فى الأكوان ، ودراية بخصائص الأديان ، وسلامة من التعقيد فى تصور المعانى الرفيعة ، وخروج من مشاكل العلم والمعرفة ، بما يريح النفس ، ويطمئن القلب ، وييسر الدعوة الصادقة إلى دين الحق ، والنهوض بالمستويات فى الأفراد والجماعات .

وفى الحق لقد لمسنا فى أصحاب التصوف منذ عرفناهم وصحبناهم — كما قرأت فى مؤلفاتهم منذ قرأنا لهم — الغوص على الحقائق ، وتفجر الحكم البوالغ ، مع السلوك الفاضل ، والخلق الكريم النافع . وما أنفع الخلق الكريم لصاحبه وللآخرين فى المعاملة ، فهو ضالة الأكوان ، وثمرة الإيمان ، ودعوة الأنبياء والمصلحين ، والذى يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه وفى المتصفين به « إن أحبكم إلىّ وأقربكم منى منازل يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، الموطئون أكنافا ، الذين يألفون ويؤلفون » .

ويقول فى الحث عليه : « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فليسعهم منكم بسطة الوجه وحسن الخلق » .

كما أننا لمسنا فى الذين لم يمارسوا هذا الاتجاه ، ولم يأخذا منه بجانب ، ظلمة فى قلوبهم ، وظلما فى تعاملهم ، واختلالا فى مقاييسهم ، وأنه تساورهم القلاقل ، وتقف فى سبيلهم المشاكل ، وأنهم يخافون من غير مخوف ، ويلجئون

إلى غير الله سبحانه ، فينكصون على أعقابهم ، ويعدلون عن الحق ، ويتلونون كالحرباء مع الخلق .

والتصوف الصادق لمن وفق له هو السبيل الواجب ، والمسلك الصائب ، والوسيلة الحق إلى تحصيل الشخصية الفاضلة ، التي هي الأحرى بأن يعتمد عليها الأفراد والجماعات .

وإليك ما يقوله بعض المؤلفين المعاصرين عن التصوف[1] .

« إنه نتيجة العقل ، وثمرة العلم ، ولباب الدين ، وروح الإسلام ، لأنه الاشتغال بعبادة الله تعالى ، والتعلق بحضرته العلية ، وهو الغاية الكبرى من وجود الأكوان ، وخلق الإنسان والجان ـ والمقصود في الحقيقة من بعثته وبعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام . . . ومن المأثور عن بعض السلف ونسبه الشيخ زروق في قواعده إلى الإمام مالك رضي الله عنه : من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ، ومن جمع بينهما فقد تحقق » .

وإنما يتفسق المتفقه دون تصوف ، لأنه كما أشرنا محروم من خشية الله والمراقبة له سبحانه ، بعيد عن ساحته ، وما دام محروماً من ذلك الجانب فهو عرضة للاهمال في عمله ، والخلل في عبادته ، قلبه غير سليم من الشك ، ولا مبرأ من النفاق والحقد والحسد ، وغير ذلك من أمراض القلوب ، كما بين الإمام الغزالي في مواضع مختلفة من كتابه « إحياء علوم الدين » .

والمتصوف إذا لم يتفقه في الدين ، فهو عرضة لتلاعب الشياطين ، فهو ينخدع بالخواطر والواردات ، ولا سيما فيما يتعلق بالذات العلية ، وقد يكون

---

(١) كتاب الإنسان والإسلام لزميلنا وأستاذنا العالم الصوفي الشيخ محمد الطاهر الحامدي ، وراجع القاعدة الرابعة من قواعد التصوف لزروق وناشره مكتبة الكليات الأزهرية سنة ١٩٦٨ .

فيها جانب من تشبيه الله سبحانه بشيء من مخلوقاته ، وقد يكون فيها استباحة للحرام لشبهة أنه فى مقام يحل له ما حرم الله ، أو الاستهانة ببعض الفرائض بشبهة أنه فى مقام يسقط عنه التكليف ، وحاش لله ولدينه من أن يكون فيه شىء من ذلك الانحراف والتحريف ، كما سقط فى ذلك كثير من هؤلاء الدخلاء على الله سبحانه وعلى دينه ، فضلوا وأضلوا ، نعوذ بالله منهم وممن ينخدع بهرائهم وترهاتهم .

ولقد طالما سمعنا عن المحققين الذين أخذوا العلم عن حقيقته ، أن الواحد منهم كان يرد عليه الوارد ، ويسنح له الخاطر ، فيقف عنده طويلا ، ويتردد فى قبوله ، حتى يقوم عليه شاهدان عدلان من الكتاب والسنة ، وهذا لعمر الله هو الدين الحق ، وهو الصراط المستقيم . وهو التحقق الذى يشير إليه ذلك الخبر عن الإمام مالك سواء أصحت روايته عنه أم لم تصح ، فإنه كلام حق .

من أجل ذلك قلنا إن الذى تدل عليه كلمة التصوف هو تلك الصفات الرفيعة التى تحلى بها خاصة المسلمين من مراقبة الله ، والاستهتار بذكره ، والزهد فى الدنيا على الوجه الذى سنه الدين ، وجرى عليه سلفنا الصالحون ، رضوان الله عليهم أجمعين ، لأن كل خروج عن الجادة فهو جدير أن يرفض ، والإسلام منه براء .

كما قلنا إن هذه المعانى إذا صحت فى إنسان كان هو الإنسان السوى المصلح ، الذى تنشده البشرية لما يتحلى به من دين وخلق ينهض بالمستويات .

وقد تناول الصوفية وغيرهم فى الكتب والمؤلفات بيان مدلون هذه الكلمة (التصوف) فى عبارات نكتفى منها بالإشارة إلى بعضها .

قال الإمام الفقيه المالكى الصوفى أحمد الدردير فى شرحه للخريدة فى علم التوحيد ، وهو يبين المعنى العملى للتصوف : إن التصوف الأخذ بالأحوط

من المأموريات ، واجتناب المنهيات ، والاقتصار على الضرورى من المباحات .

وإن كنا نرى أن الاقتصار على ما تدعو إليه الضرورة فقط من المباحات معنى يلتبس بالتنطع فى الدين ، ويختلط بالإعراض عن إظهار النعمة ، وإن أكمل الأشياء ما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته من تناول الطيبات.

وقد اعترض الإمام الحسن البصرى على فرقد الإمام الجليل حين أعرض عن أكل الفالوذج فى حديث يذكره المفسرون فى تفسير الآية الكريمة . . (لا تحرموا ما أحل الله لكم ولا تعتدوا) كما يذكره غيرهم فى مناسبته . وكان الحسن البصرى سيد الزاهدين فى عصره ، ولهذا قلنا إن الزهد غير ما يتوهمه كثير من الناس .

ولكن بعض الصوفية رضى الله عنهم أرادوا أن يفطموا النفوس عن الشهوات ، ويجعلوا بينها وبين الحلال أبواباً وحجباً من المباحات وتذرعوا بالورع الذى هو ترك الشبهات ، عملا بما ورد فى ذلك من الكتاب والسنة . والصراط المستقيم أدق من الشعرة ، وأحد من السيف ، والمهتدى من وفقه الله سبحانه .

وقال الغزالى فى بعض كتبه : « إنه تجريد لله . واحتقار ما سواه » .

على أن كلمة الاحتقار قد توهم معنى لا يتفق مع التصوف ، فإن الاحتقار معنى ينفر منه الدين وينفر منه ، فإنه ينافى حسن الخلق الذى هو أساس التصوف ، فلا يتوهمن أحد أن الإمام الغزالى يريد بالاحتقار إهانة الناس وعدم تأدية حقوقهم ، وإنما أراد ألا يطلب من أحد الناس نفعاً ولا ضرا ، لأن ما عدا الله فقير وضعيف ، والله هو الغنى الحميد ، والقوى العزيز (من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً) ، (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ، هكذا يريد الغزالى وغيره فى معنى هذه الكلمة .

والأقوال المأثورة فى التصوف قيل إنها زهاء الألفين[١] .

وهناك تصوف بالمعنى العلمى ، يرجع إلى تعرف تلك الدراسات التى من شأنها أن تحقق لمن يطبقها تلك المعانى الرقيقة من الزهد والذكر والمراقبة ، لتثمر له حسن الخلق بجملة معانيه من الأدب والتواضع ، والتعاون والصفح والبذل ، وما إلى ذلك مما دعا إليه الدين ، وحث عليه سيد النبيين .

ولهذا عرفه الدردير بأنه « علم يعرف به صلاح القلب وسائر الجوارح[٢] . وجدير به أن يكون كذلك ، فإنه دراسات خاصة بأهل ذلك الشأن ، تدل على أحوال النفس ومنازلها ، ومداخل الشيطان إليها ، وطرق رياضتها ، ووسائل علاجها ، كما تدل تلك الدراسات على أحوال القلب ، وما يعرض له من مرض وسقم ، وصحة وقوة ، وبملاحظة أن يكون المرء فى دينه سليما ، وفى عمله قويما ، وفى سلوكه مستقيما ، ويبلغ مرضاة الله وهدايته فى كل مناحى الحياة .

وقد تحامل بعض من لا يدرى على التصوف فادعى أن المقصود منه إماتة الصفات البشرية ، وقطع حظوظ النفس بالكلية ، حتى زعموا أنه مذهب خيالى لا يمكن تطبيقه عمليا .

وليت شعرى ما يقول هؤلاء فى أمثال هؤلاء الأئمة العارفين من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان ، أولئك الذين بلغوا من معنى التصوف ذروته ، وإن كانت التسمية به متأخرة كما بينا ، ولكن معانيه هى تلك السموات التى نوهنا بها من قبل ؟

وما يقولون فى أمثال الأئمة الأربعة الذين نالوا من تلك المعانى أكبر قسط ، فعرف عنهم من الزهد والورع وقيام الليل وخشية الرب ، ما يعجز القلم

---

(١) راجع كتاب « الإنسان والإسلام » ص ٢٠٤ فما بعدها وهو لصديقنا وأستاذنا الشيخ طاهر الحامدى . (٢) المرجع السابق .

عن وصفه ؛ مع مسايرة الطبيعة وسنن الاجتماع من مخالطة الناس ومخالقتهم ، والتعامل معهم بالبيع والشراء ، والتعليم والإفتاء وما إلى ذلك .

وما يقولون فى أمثال الجنيد وابن أدهم والخواص ثم الغزالى وابن القيم . . وغيرهم، ممن أقاموا عمود الدين، وكان لهم فيه قدم صدق عند ربهم وعند العالمين.

وإنا لنغبط هؤلاء الموفقين ، ونود لو وفقنا لذلك الاتجاه المتين الذى اتجهوا صوبه ، فكان لهم القدح المعلى فى فهم الحق على وجهه ، وفى السلوك الحق على وجهه ، فكانوا من الذين يصفهم الله سبحانه وتعالى بأنهم آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر . اللهم اجعلنا منهم واحشرنا معهم يا رب العالمين .

ولقد كانت هذه الناحية لنفاستها ومكانة المتجهين إليها مما وجه النفوس الإسلامية الكبيرة إلى التعرف عليها ، أو الاندماج فى سلك أصحابها ، ولقد شغلت دراستها كثيراً من العلماء وفحول المؤلفين ، وأفسحوا لها مجال القول ، ونوهوا بها أيما تنويه . وليس المجال متسعا لذلك ، ولكنى أشير إلى جانب منه ، ولعل كثرة كاثرة من المثقفين يعرفون الإمام الغزالى الملقب بحجة الإسلام ، هو من فحول القرن الخامس الهجرى ، ولقد انتهى أمره إلى التصوف ، بعد أن بلغ الذروة فى الفلسفة والاجتماع ، وفى الفقه والتشريع ولقد تحدث عن نفسه وما كان يعتوره على جلالة قدره من التردد والاضطراب، وعدم الاقتناع بالنظر الفلسفى ، ولا الاطمئنان للدليل العقلى ، لما يطرأ عليه من الشك والاحتمال .

وقد ضمن ذلك كتاباً أسماه « المنقذ من الضلال » ، ومما جاء فيه أنه قاسى الكثير فى استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق ، مع تباين المسالك والطرق ، ثم ارتفع من حضيض التقليد إلى يفاع الاستبصار ، وأطال كثيراً فى وصف تردده على عقائد الفرق ، ومحاولة استكشاف مذاهب الطوائف

من المتكلمين والباطنية والفلاسفة والصوفية . وما كشفه من أخطائهم جميعاً هذا الصوفية الذين أقبل بهمته على طريقهم ، فطالع علومهم فى كتبهم ، ودرس المأثورات عن أئمتهم ، حتى ظهر له أن أخص خصائصهم شىء لا يمكن التوصل إليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات . ثم أفاض فى وصف ما وصل إليه من ذلك ، وهو كتاب قيم فى هذا المعنى ، على أنه مشهور ومتناول .

ولقد ألف الغزالى فى هذا التصوف فوق كتبه الأخرى كتباً كثيرة جليلة ، على رأسها ذلك الكتاب الذى تغنى شهرته عن وصفه ، وهو إحياء علوم الدين الذى استوعب التصوف على جميع مناهجه ، وتنوع طرقه ومسالكه ، بما نرى أن فيه الغنية عما سواه ، وليس فى غيره غنية عنه ، مع الاستيعاب ، لولا عدم التحرى فى نقل الأحاديث النبوية . ولكن الإمام العراقى أحسن فى تخريج أحاديثه فى الأعم الأكثر من مجهوده الجليل ، وإن كنا نرى أن الغزالى قد حاد فى بعض الشىء فى بعض ما يوجه إليه من الفضائل وبعض الصلوات ، وقليل غير ذلك ، مما لو تجرد عنه لكان فى الغاية . والكمال لله وحده .

وقد سبق إلى الكتابة فى ذلك كثير من الأئمة الفحول ، كما سنشير إلى ذلك إن شاء الله ، وفى كتبهم ما يدل على ذوق ووجدان ، وفيها دفاع صادق مشكور عن التصوف والمنتسبين إليه .

٢ — فأما التصوف المخلوط بالشطح والبدع الخارجة عن سنن الأولين من السلف الصالحين ، فإنه شىء إثمه أكبر من نفعه ، وشره أكثر من خيره ، لأنه خروج عن الجادة ، وضلال عن قصد السبيل ، يلبس به الشياطين على الجاهلين ، فيوهمونهم أنهم من صفوة المهتدين وما هم بمهتدين .

وإذا قيل لهم (لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) . وبعض ذلك النوع مما تخرج الخيالات

بصاحبه عن الدين فيصرح للناس فى كلامه، أو يضع لهم كتبه ما يصرفهم به عن الحق ، فينكر عليه العلماء ، ومن هم على قدم المصطفى صلى الله عليه وسلم ذلك ، ويضللونه ويحذرون الناس من اتباعه .

ولقد طالما جر ذلك على الناس الزيغ اغتراراً بمن يصدر منهم ذلك .

ولقد أفتى كثير من العلماء بكفر جماعة ممن اشتهروا بالولاية ، وحكم عليهم أئمة التصوف أنفسهم بذلك ، كما فعل الجنيد مع الحلاج لما صدر عنه بعض العبارات التى تقتضى خروجه عن الدين . وحكم ابن تيمية وأضرابه على الإمام محيى الدين بن عربى وابن سبعين وغيرهما بمثل ذلك لتصريحهم ببعض عبارات يرفضها الدين ويتبرؤ منها .

والواقع أن فى كتب التصوف الرشيد المتزن ما يفيد تهذيبا فى النفوس ، وصلاحاً فى القلوب ، مع الخلو عن ذلك الشطح ، وتلك الترهات ، ففيه غنى عن النظر فى تلك العبارات المضللة .

ومن تلك الكتب المتزنة هذا الكتاب الذى بين يدى « التعرف لمذهب التصوف » ، وأقل ما يتحقق فيه ذلك التصوف المخلوط أنه داخل فى الفتنة التى يقول فيها النبى صلى الله عليه وسلم « أيما رجل يحدث قوماً بغير ما تصل إليه عقولهم كانت فتنة عليهم » .

ولهذا فإننا نحذر الناس من قراءة تلك الكتب الفتانة ، ككتب الشيخ ابن عربى ، وعلى رأسها الفتوحات الملكية ، وكتاب الإنسان الكامل للجيلى ، وبعض كتب الإمام الشعرانى ، ولا سيما التى يجارى فيها الشيخ ابن عربى . اللهم إلا إذا كان فى القارىء تمكن فى الدين يأمن به على نفسه من التورط فيما تدل عليه تلك العبارات .

وما زلنا نقرأ فى كتب رجال الدين والسنة تحذيراً من غوائل ذلك التصوف

المخلوط بالباطل، ومن هؤلاء المؤلفين الإمام أبو الفرج الجوزى الحافظ الكبير، والواعظ الجليل، وقد كان من فحول القرن السادس، توفى سنة ٥٩٧ .

وله كتاب أسماه « تلبيس إبليس » نبه فيه على بعض مخالفات الزهاد والصوفية[١] وأطال فى الإنكار عليهم .

ومن ذلك أنهم يتركون العمل للدنيا والأخذ من الطيبات، وبعضهم يلزم الصمت الدائم، وبعضهم يعرض عن العلم، ويقع منه الرياء بالطاعات، وبعضهم يفخر بالكرامات، ونعى على كثير منهم جرأتهم على الفتوى بما يخالف الدين، وذكر طرقا من ذلك

وتعرض لظهور عبارات تدل على الحلول أو الاتحاد فى شأن الله سبحانه، وتناول بعضهم بلبس الخرق والمرقعات، والسماع والغناء، والوجد والصياح والتغالى فى صحبة الأحداث . والمرد، وما إلى ذلك . على أنه تحامل عليهم، وأسرف بعض الإسراف فى تجهيلهم .

ثم هذا المحقق ابن خلدون ينعى على بعضهم أيضا تورطهم فى طائفة من المخالفات، والشذوذات، وكان من أئمة العلماء، وذوى البصر والدقة، ومن رجال القرن الثامن، توفى سنة ٨٠٨ .

وقد تناول فى مقدمته العظيمة العلوم وأصنافها، وأفرد لها فصلا طويلا جدا تناول فيه كل علم من العلوم، فيبين أطواره، ولكنه وقف عند التصوف وقفة طويلة أورد فيها ما لهم وما عليهم .

ومما أورده فى نقدهم أن بعضهم ينتحل الكشف عن الغيب، وأن هذا الكشف لا يكون صحيحا كاملا إلا إذا كان ناشئاً من الاستقامة[٢] .

---

(١) راجع كتاب « تلبيس إبليس » أو « نقد العلم والعلماء » ص ١٤٥ - ٢٧١

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٣٧٢ .

ثم أخذ على بعضهم غموضه في كشف الوجود وتصوير حقائقه، وقولهم بالوحدة المطلقة، مع شدة غرابة ذلك القول في تعقله وتفاريعه، وأطال في ذلك وفيما تركه من أثر في نفوس المتأخرين، حتى ملئوا به كتبهم وصحائفهم، من أمثال ابن عربي وابن سبعين وابن العفيف وابن الفارض.

وانتقل إلى مزاعمهم في القطب وغيره. ثم أشار إلى من انتدبوا للرد عليهم من الفقهاء، على أنه أنصفهم كثيراً ببيان مزاياهم.

وعلى أن الإمام الغزالي وهو من أئمة الصوفية أنفسهم كما بينا قد سبقه وغيره إلى بيان جوانب من خطئهم، وذلك متفرق في كتبه، وتلك الناحية مجموعة في كتاب له يسمى «الكشف المبين في بيان غرور الخلق»، ومما أورده عن الصوفية[1] الشيء الكثير.

ومما أخذ عن معاصريه منهم أنهم يشبهون الصوفية في زيهم وهيئتهم وألفاظهم وآدابهم، مع أنهم يتكالبون على الحرمات والشبهات وأموال السلاطين.. وذكر أن منهم من يدعى المكاشفة ومشاهدة الحق والملازمة في عين الشهود والوصول إلى القرب، ولا يعرفون ذلك إلا باللفظ.

وإننا نكتفي بالإشارة إلى ذلك حتى لا يشتط القلم، فليرجع إليه من شاء.

ومن المتأخرين من تحامل عليهم بالحق وبالباطل. وقد حصر الشيخ رشيد رضا في مقدمته لمدارك السالكين لابن القيم أخطاءهم في اعتباره.

ومهما يكن فإننا لا نقبل شيئاً لم يؤيده كتاب الله وسنة رسوله ومسلك سلف الأمة الصالحين، وخلافنا ذم. والحكمة ضالة المؤمن، يلتقطها حيث يجدها، وبالله التوفيق.

٣ — وأما أطوار التصوف التي مرت به فحسبنا في هذه العجالة أن نشير إلى ما يأتي:

(١) الكشف المبين ضمن مجموعة كتب الغزالي ص ١٢٨ طبع ١٩٥٤.

رأيت فيما سبق أن طريق الصوفية ظهر فى القرن الثانى، حين بدأ إعراض الناس عن السبيل السوى، من مراقبة الله وخشيته، وذكره فى السر والعلن، والزهد فى الدنيا، فهالهم تكالب الناس على الدنيا، وانتحوا عنهم جانباً متجهين إلى الحق سبحانه، ومتبتلين يتلون كتاب الله، ويقيمون الصلاة، وينفقون بالليل والنهار سراً وعلانية. كلما رزقهم الله من فضله.

ومن ذلك الحين ظهرت كلمة التصوف، وقيل لهؤلاء صوفية.

ويلاحظ فى هذا المقام أن التصوف بدأ عملا يتمثل فى ذلك الجانب الذى أشرنا إليه، وكان معه علم ومعرفة تتناقل فى عبارات يلقيها الواعظون والدعاة الصالحون، فيحفظها الناس ويبلغونها أو يكتبونها، وقد رأينا كثيراً منها بين التراث الأدبى فى أمهات كتب الأدب كالبيان والتبيين للجاحظ، والكامل للمبرد، والمعارف لابن قتيبة، والعقد الفريد لابن عبد ربه، وغيرها وغيرها. ومنهم من أفرد أبواباً خاصة لحكم الزهاد ومواقف الوعاظ وتوجيهاتهم الرفيعة.

إلا أن ظهور المؤلفات فى مختلف العلوم سرى إلى ناحية التصوف، فبدأ القوم يكتبون الكتب التى تبين مناهجهم، والتى تدافع عنهم، ولا أستطيع أن أجزم بالتحديد ببدء ظهور تلك المؤلفات الخاصة.

غير أننى أستطيع أن أقول إن من أوائل ما ظهر منها: كتاب « الرعاية لحقوق الله » لأبى عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى المتوفى سنة ٢٤٣، وكان كما يقول السلمى من علماء مشايخ القوم بعلوم الظاهر وعلوم الإشارات والمعاملات وكان أستاذ أكثر البغداديين، وكتابه « الرعاية » يعتبر أول كتاب جامع لأبواب السلوك العملى فى أسلوب علمى، وكان صاحبه معاصراً للامام ابن حنبل، ولكنه حمل لواء الصوفية، وأنكر عليه الإمام ذلك، ثم رجع إليه أخيراً حين تردد على مجالسه. وكتابه يعتبر من مراجع كتاب « التعرف لمذهب التصوف » لما بينهما من إشتراك فى المنهج وفى الموضوعات.

ثم ظهر فى القرن الرابع هذان الكتابان الجليلان : « التعرف لمذهب التصوف » و « قوت القلوب » لأبى طالب المكى المتوفى سنة ٣٨٦ ، ويبدو أن كتاب « التعرف» أسبق من «قوت القلوب» كما يدل على ذلك سبق الكلاباذى قليلا فى التاريخ ، فقد ذكروا أن وفاته كانت سنة ٣٨٠ .

ويدل عليه أيضاً أن أبا طالب قد حشد فى كتابه ما يستوعب التصوف ، وجعل منه موسوعة علمية فياضة، صارت مصدراً من أوسع مصادرهم ، أخذ منه الغزالى وغيره .

وقد عرض فيه أبو طالب كالكلاباذى منهج الصوفية، وأبان عن سلوكهم ورسوخهم فى المعارف ، وطريق فهمهم للكتاب والسنة ، والربط بين مايسمونه الشريعة وما يسمونه الحقيقة ، أو علم الظاهر وعلم الباطن .

ثم ظهر فى النصف الثانى للقرن الرابع الهجرى الإمام أبو القاسم القشيرى وكان من أئمة المسلمين فى علوم الدين واللغة على اختلافها . وقد اجتمع ببعض أئمة التصوف فى وقته ، وهو الشيخ أبو على الدقاق ، فلزمه حيناً من الدهر ، مع قراءاته ومطالعاته، فكان ممن جمع بين الاتجاهين العظيمين، ثم وضع رسالته العظيمة التى كتب بها إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام ، وتناول فيها كثيراً مما امتحن به هو ومعاصروه، كما امتحن من قبلهم من الصوفية ، وكشف كثيراً مما يدعيه منتحلو التصوف وأدعياء الولاية لله سبحانه ودعا إلى طريقة السلف بذكر سيرهم وأقوالهم .

ويمتاز الكتاب عما قبله من كتاب التصوف بتوجيه عنايته لنقل أقوال القوم من رجال التصوف ؛ ولا يوجه عنايته إلى الكتاب والسنة كما وجهها من قبله من المؤلفين فى التصوف ، ولذا فإنه لا يخلو من بعض الشطح .

ولو كنا بصدد الاستيعاب لأطلنا الحديث مسلسلا عن هؤلاء ومن عاصرهم فلننتقل إلى الأهم .

جاء الغزالى بعد هؤلاء فى نهاية القرن الخامس فوجد التصوف مذهباً قائم الدعائم ، ووجد المتصوفة فرقة من المسلمين لها كيانها ومكانتها الرفيعة ، وقد طوف بالبلاد حتى بلغ فى علوم الدين مابلغ كما أشرنا من قبل ، وكما حدث عن نفسه ، فقد وجهته عناية الله إلى الاندماج فى سلك هذه الطائفة مع حصافته العجيبة وعلمه الفياض الدقيق الرقيق ، لقد آمن بالصوفية والتصوف وآمن أن فيه براءته من أمراض الدنيا وشهواتها من طعام لذيذ وشراب عذب وجاه ومال . فالتصوف فى الحق هو السبيل الحق إلى الإيمان الصالح ، والعمل الصالح ، والحياة المطمئنة ، والعقبى الجميلة ، فصار يجاهد نفسه على ترك العادات ، ومقاومة المألوفات ، والفرار بدينه إلى الفلوات مع الوحش والجماد ، لا بل مع الله وحده .

ولقد اتصل بفحول شيوخ القوم وأساس قيادة لهم .. وبعد فترة اتجه إلى تلك الفتوحات العجيبة ، والفيوضات الرحيبة فى كتبه الجديدة ، التى وضعها فى التصوف ، بعد أن ملأ الدنيا فيوضات من الفقه والتفلسف ، فصرت ترى له من المعارف الدقيقة التى لاتخرج قيد شعرة عن الشرع الشريف مع الاسترسال الفائق والتقسم الرائق ، مما يجعلك لاترى مايقاربه أو يدانيه فى مؤلفاتهم . وحسبك بكتابه « إحياء علوم الدين » .

ثم ظهر بعد الغزالى كثير من الصوفية ، منهم من أقسط واستقام على النهج ، ومنهم من قسط وجار عن القصد فى عرض الحقائق وتصوير المعارف ، ومنهم الإمام السهروردى صاحب كتاب « عوارف المعارف » وإن كان قد أسرف فى بعض اختصاصاتهم كالخرق والرباطات والملامتية وغير ذلك ، على أن تلك اصطلاحات لاتمس جوهر الدين .

ومنهم عبد الرحمن القنائى ، وأبو الحجاج الأقصرى ، وأبو الحسين الشاذلى المتوفى سنة ٦٥٦ ، كما قال الشعرانى فى كتابه « الطبقات » .

وحسبنا أن نشير إلى كتاب « الطبقات » للشعرانى ، وكتاب « الطبقات » للسلمى ، وكتاب « كشف الظنون » وغيره من نظائره ، حتى يرجع إليها من أراد المزيد فإنه لابد لى فى هذه العجالة من أن أقف القلم عند هذا الحد ، والله سبحانه ولى التوفيق والهداية .

٤ — وأما النقطة الأخيرة من هذه المقدمة وهى كتاب « التعرف » ومؤلفه فإن مؤلفه الإمام الكلاباذى ، والذى أطلعنا عليه من التعريف به بعد البحث عليه فى كشف الظنون ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة والأعلام للزركلى.

إنه محمد بن إبراهيم بن يعقوب الملقب بتاج الدين الكلاباذى البخارى ، أبو بكر من حفاظ الحديث ، من أهل بخارى ، وأنه كان حنفيا فى الفقه ، وصوفيا فى المسلك ، وأن له مشاركة فى مختلف العلوم ، وله عدة مؤلفات ، منها هذا الكتاب الذى شرحه هو شرحاً سماه بـ « حسن التصرف بشرح التعرف » وسلك كما قال صاحب كشف الظنون فى المتن والشرح طريق التصوف ، وأورد سيرة الصوفى وبينها ، وكشف عن كلام المشايخ فى التوحيد والصفات ما يمكن كشفه ، وشرح للقاضى علاء الدين على بن إسماعيل التبريزى الأصولى الشافعى المتوفى سنة ٧٢٩ ، وشرح لشيخ الإسلام الهروى وهو الإمام العارف الصوفى صاحب منازل السائرين ، وغير ذلك من الشروح ، ويا حبذا لو أمكن البحث عنها فى مخطوطات الدار أو فى مكتبة الأزهر ، للنظر فى طبع اللائق منها أو كلها ، اعتناء بالتراث الإسلامى .

وله من المؤلفات : « الأربعون » فى الدين ، « الأشفاع والأوتار » ، و « آمال » فى الحديث ، و « بحر الزوائد المشهور بمعانى الأخبار وفصل الخطاب » .

وكان هذا كله فى عهد لم تستكمل فيه العناية بالتأليف ، وكان المؤلفون قلة ، وكان المؤلف من هذه القلة قليل التأليف ، فقد كان فى القرن الرابع ، وكانت وفاته سنة ٣٨٠ هـ .

هــــذا الكتاب

وأما كتاب « التعرف » من وجهة نظرنا ، فإنه كتاب يمتاز بالاعتدال في مسلكه الهادىء الرزين ، وبصحة عبارته وأسلوبها الرصين ، فهى صادقة التصوير فى إيجاز لاتجاه الصوفية فى توحيدهم وعقائدهم ، وفى سلوكهم وصفاتهم ، وفى سيرهم وأماناتهم ، وفى مقاماتهم وأحوالهم : وفى اصطلاحاتهم . على أن له مقدمة تجمع أغراضه والأسباب الحافزة على تأليفه : وهى لعمرى من آيات البلاغة ، ومن أرفع أنماط الصياغة ، تنم على مستوى رفيع فى البيان ، وتحدث عن صاحبها بأنه من أكرم فرسان ذلك الميدان :

ولقد كان منفعلا فيها انفعالا صادقا بديعاً . بلغ به فى تصوير الداعى إلى تأليفه شأواً رفيعاً فى التصوير ، فهو قصيدة رائعة فى الشعر فى رسالة بديعة من النثر ؛ تبين ماعليه أهل زمانه من فساد مفزع ، وما فيه من انتحال التصوف المدخول وادعائه غير المقبول ، حتى انتدب رحمه الله لرد الأمر إلى نصابه ، وبيان حقيقة التصوف وأربابه ، وحتى يكون كتابه كما يقول : « ينفى عنهم تحرض المتخرصين ، وسوء تأويل الجاهلين ، ويكون بياناً لمن أراد سلوك طريقه ، بعد أن تصفح كتب الحذاق له ، وتتبع حكايات المتحققين له ، بعد العشرة لهم ، والسؤال عنهم .

ثم ترى فى عبارات الكتاب فى جملتها روعة التصوير ، ودقة الحكم ، فى سلاسة تترقرق ، وعذوبة تتدفق بقلب أى صفحاته ، انظر فى أى أبوابه وأهدافه ، والأمر على مابينت لك .

ففى الباب الأول على سبيل التمثيل ستراه يعرض ماقيل فى سبب تسميته الصوفية بذلك ، ويتتبع الأقوال مع جمال عرضها والاحتجاج لكل منها ، ويستطرد إلى أنهم يسمون أيضاً نورية ، لأن الله نور قلوبهم ، ثم كيف اجتمعت لهم الأوصاف التى لمحها كل صاحب فكرة .

وأنها تلتقى فى النهاية مع قرب مآخذها ، ويستقصى فى ذلك استقصاء لاتعرفه لغيره ، ممن تناولوا ذلك البحث مع ذكر صفات هؤلاء القوم ، وما هم عليه من الأتباع ولزوم جادة الشريعة .

وفى الباب الثانى والثالث والرابع يكتفى بسرد أسماء ورجال من اللامعين بينهم فيرفع بذلك من شأن التصوف لمكانتهم الرفيعة ، وسيرتهم الحسنة ، وهو يصفهم فى تلك الأبواب بحسب مزاياهم ومميزاتهم .

ثم بعد ذلك يشرح عقائدهم فى التوحيد والصفات ، وفى رؤية الله ، وفى خلق الأفعال وفى الاستطاعة وفى الخير ، وفى الأصلح ، وفى الشفاعة ، وفى غير ذلك من مسائل علم الكلام ومشاكله ، مع نفس طويل عريض فيما يحتاج إلى ذلك ، شرحا لانتردد معه بحال فى أن هؤلاء القوم على ميزان الاعتدال ومذهب أهل السنة والجماعة ، بلا شطح ولا شطط . ولا غرو فإنهم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى فصفت وأبصرت .

والبيان فى كل ذلك معلم حاذق لايحتاج إلى معلم ، وبرهان منير محكم مبرم .

ثم ينتهى من كل ذلك إلى علوم الصوفية ، وإلى أركان التصوف ، وإلى مصطلحات التصوف ، ويكشف عن مذهبهم فى مفاهيمها بما يتبين منه أنها درجات من الإحسان الرفيع ، وأنها خير حراسة للإيمان والدين بنعمة الله وفضله ، مع العلو فى التصوير على قدر مكانة المصور ورفعة شأنه ، فهو يتناول الشكر والصبر ، والفقر إلى الله عز وجل ، والخوف والتواضع ، والتقوى والإخلاص ، والرضا واليقين ، والذكر والأنس ، والاتصال والقرب ، والتجريد والتفريد ، والفناء والبقاء ، تناولا لانعهده إلا لأمثاله تصويراً ودقة .

وإذا اتجهت إليه عند ذكر الفناء مثلا وجدته راح يحشد له من الأدلة

الشرعية والمأثورات السلفية حتى يزداد المؤمن إيمانا به ، ولا يرتاب المحتاط للعقيدة .

ثم يقول : « إن الفناء فضل من الله ، وهو هبة للعبد وإكرام منه له ، وليس هو من الأمثال المكتسبة . . فلو رد الله العبد إلى صفته كان فى ذلك سلب ما أعطى واسترجاع ما وهب ، وذلك غير لائق بالله عز وجل . . »[1] .

وهكذا وهكذا ، حتى يتجلى لك أن الكتاب صورة صادقة للتصوف فى أعلى ذراه ، وأنقى موارده وأهدى معارجه . . وأنه قد جمع لك على وجازته وتقريبه . ما تفرق فى غيره . مع الاستقامة المنشودة . والدقة المطلوبة . وهو بذلك أعز وأعلى ما كتب فى التصوف إلى عصره وبعد عصره . إذا استثنينا ما كتب بأسلوب طويل منبهب مثل « قوت القلوب » لأبى طالب المكى ، و « إحياء العلوم » للإمام الغزالى ، و « مدارج السالكين » لابن القيم . وربما كان فى الطول إملال إن لم يكن فيه إخلال .

وإذا كان الصديقان الكريمان فضيلة المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود ، والمرحوم طه عبد الباقى سرور . قد بذلا جهداً مشكوراً فى تصحيحه على المخطوطات[2] وكتابه نفيس التعليقات . فلم يبق لمثلى إلا أن يعشو على ضوئهما ، ويسير فى هديهما ، مع ما يشرح الله له الصدر ، وله سبحانه المنة والفضل . وهو المسئول أن يعصم من الزلل فى القول والعمل سبحانه . وأن يعين على إتمام إنجازه نافعاً للمسلمين ، هادياً بإذن الله إلى الصراط المستقيم ؟

خادم العلم الضعيف

محمود النواوى

---

(١) التعرف ص ١٢٨ طبع الحلبى سنة ١٩٦٠ .

(٢) هذه الجملة من مقدمة الكتاب للصديقين الفاضلين المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود والمرحوم السيد طه عبد الباقى سرور .

المراجع

* القرآن الكريم .
* الصحيحان .
* الإحياء للغزالى .
* قوت القلوب لأبى طالب المكى .
* الرعاية للمحاسبى .
* طبقات الصوفية للسلمى .
* الطبقات الكبرى للشعرانى .
* كتاب الأبريز للسيد عبد العزيز الصباغ .
* التصوف الإسلامى لفضيلة الشيخ صادق عرجون .
* منازل السائرين للهروى وشرحه لابن القيم .
* كشف الظنون والأعلام للزركلى .
* قواعد التصوف للفقيه المالكى أحمد زروق .
* شرح الخريدة للدردير .
* الإنسان والإسلام للشيخ الطاهر الحامدى .

بسم الله الرحمن الرحيم

و به نستعين

الحمد لله المحتجب بكبريائه عن دَرْك العيون ، المتعزّز بجلاله وجبروته عن لواحق الظنون ، المتفرد بذاته عن شبه ذوات المخلوقين ، المتنزه بصفاته عن صفات المحدثين ، القديم الذى لم يزل والباقى الذى لا يزال ، المتعالى عن الأشباه والأضداد والأشكال ، الدال لخلقه على وحدانيته بإعلامه وآياته ، المتعرف إلى أوليائه بأسمائه ونعوته وصفاته ، المقرّب أسرارهم منه(1) والعاطف بقلوبهم عليه ، المقبل عليهم بلطفه ، الجاذب لهم إليه بعطفه ، طهّر عن أدناس النفوس أسرارهم ، وأجلّ عن موافقة الرسوم أقدارهم ؛ اصطفى من شاء منهم لرسالته(2) وانتخب من أراد لوحيه وسفارته ؛ أنزل عليهم كتبا أمر فيها ونهى ،

---

(1) الأسرار : جمع سر وقد عرفه السيد الشريف فى كتابه التعريفات (بأنه لطيفة مودعة فى القلب كالروح فى البدن . قال : وهو محل الشاهدة كما أن الروح محل المحبة ، والقلب محل المعرفة ، وقد تكرر هذا القول عند قوله : وطهر عن أدناس النفوس معنى أسرارهم . . وعند قوله (وحامت حول العرش أسرارهم) . وقوله (وأسرارهم صافية) .

والعاطف بقلوبهم عليه معناه أنه تفضل على أوليائه بتوجيهها نحوه ، وهو معنى الجاذب لهم بعطفه ، فإن المراد به أن الله سبحانه وجه القلوب إليه لأنه ليس فى صفات الله سبحانه « العطف » .

(2) يصطفى الله سبحانه لرسالته فمن تولاهم .. فالرسول ولى الله قبل أن يكون رسولا . . ومن تأمل قوله سبحانه « الله أعلم حيث يجعل رسالته » فهم ذلك فهو لا يختار لرسالته إلا من كان ولياً له ، ولهذا قالوا بعصمة الأنبياء والضمير فى قوله (أنزل عليهم كتباً) يعود إلى المصطفين للرسالة .

ووعد من أطاع وأوعد من عصى ؛ أبان فضلهم على جميع البشر ، ورفع درجاتهم أن يبلغها قدرُ ذى خطر ؛ ختمهم بمحمد عليه وعليهم الصلاة والسلام ، وأمر بالإيمان به والإسلام ؛ فدينه خير الأديان ، وأمته خير الأمم لا نسخ لشريعته ولا أمة بعد أمته ؛ جعل فيهم صفوة وأخياراً ، ونجباء[1] وأبراراً ؛ سبقت لهم من الله الحسنى ، وألزمهم كلمة التقوى ، وعزف بنفوسهم عن الدنيا[2] ؛ صدقت مجاهداتهم فنالوا علوم الدراسة ، وخلصت عليها معاملاتهم فمنحوا علوم الوراثة ، وصفت سرائرهم فأكرموا بصدق الفراسة[3] ؛ ثبتت أقدامهم ، وزكت أفهامهم ، وأنارت أعلامهم ؛ فهموا عن الله ، وساروا إلى الله وأعرضوا عما سوى الله خرقت الحجبَ أنوارُهم ، وجالت حول العرش أبصارهم ؛ فهم أجسام روحانيون ، وفى الأرض سماويون ، ومع الخلق ربانيون ؛ سكوتٌ نظار ، غُيَّبٌ حُضار ، ملوكٌ تحت أطمار ؛ أنزاع قبائل[4] ، وأصحابُ فضائل ، وأنوار دلائل ؛ آذانهم واعية ، وأسرارهم صافية ، ونعوتهم خافية ؛ صفوية

---

(١) النجباء فى اصطلاح الصوفية هم المشغولون بحمل أثقال الخلق وتلك الأثقال فى كل حادث لاتفى القوة البشرية بحمله . ونحن نفضل أن يكون النجباء بالمعنى اللغوى . . والنجيب فى لغة العرب الكريم الحسيب ويجمع على نجب ونجباء . . كما فى القاموس .

(٢) عزف عن الشيء : انصرف . . وعزف به : صرفه .

(٣) الفراسة : فى اللغة اسم من التفرس وهو صحة التثبت عند النظر إلى الشيء . وتطلق فى اصطلاح الصوفية على صحة الحدس ودقة الحكم . . وانظر باب ٧٦ من هذا الكتاب . .

(٤) فى القاموس النزيع الغريب كالنازع والجمع نزاع . . ولعل المصنف جمعها على أنزاع ليزاوجه قوله أصحاب فضائل ، ومراده أن الذى يجمعهم ويؤلف بينهم صلة التقوى لا النسب .

صُوفية[1] . نورية صفية ؛ ودائع الله بين خليفته ، وصفوته بين بريته ؛ ووصاياه لنبيه[2] ، وخباياه عند صفيه ؛ هم فى حياته أهل صُفته ، وبعد وفاته خيار أمته ؛ لم يزل يدعو الأولُ الثانى ، والسابقُ التالى بلسان فعله ، أغناه ذلك عن قوله .

حتى قلّ الرغبُ وفتر الطلب ؛ فصار الحالُ أجوبةً ومسائل ، وكتبا ورسائل ؛ فالمعانى لأربابها قريبة ، والصدور لفهمها رحيبة .

إلى أن ذهب المعنى وبقى الاسم ، وغابت الحقيقة وحصل الرسم[3] ؛ فصار التحقيق حلية ، والتصديق زينة ، وادعاه من لم يعرفه ، وتحلى به من لم يصفْه ، وأنكره بفعله من أقرّ به بلسانه ، وكتمه بصدقه من أظهره ببيانه ، وأدخل فيه ما ليس فيه ، فجعل حقه باطلا ، وسمّى عالمه جاهلا ، وانفرد المتحقق فيه ضنًا به ، وسكت الواصف له غيْرةً عليه ، فنفرت القلوب منه ، وانصرفت النفس عنه ، فذهب العلم وأهله ، والبيانُ وفعله ، فصار الجهّال علماء ، والعلماء أذِلاء .

---

(١) نعوتهم منسوبة إلى الصفاء والصوفية .

(٢) كأن الله سبحانه وتعالى أوصى بسلفهم نبيه فى قوله تعالى (واصبر نفسك) الآية ... وفى قوله (ولا تطرد الذين يدعون ربهم) الآية .

(٣) كان الأولياء على الصفات الأولى الممتازة ، ثم قلت الرغبة فحفظت الأوصاف فى المسائل والرسائل ، ثم ذهبت المعانى وبقيت الظواهر والرسوم .. وخالف الباطن الظاهر . وهذا فى زمانه فما بالك بما نحن عليه .

وهذه العبارات كلها تصوير لما صار إليه التصوف من الصور غير المطابقة . . ومن الدخيل غير الأصيل ، لغلبة الجهل وقلة العلم . . ولهذا ألف كتابه (التعرف) تصحيحاً للوضع .

فدعانى ذلك إلى أن رسمتُ فى كتابى هذا ، وصف طريقتهم ، وبيان نحلتهم وسيرتهم ، من القول فى التوحيد والصفات ، وسائر ما يتصل به : مما وقعت فيه الشبهة عند من لم يعرف مذاهبهم ، ولم يخدم مشايخهم ، وكشفتُ بلسان العلم ما أمكن كشفُه ، ووصفت بظاهر البيان ما صلح وصفُه ، ليفهمه من لم يفهم إشاراتهم ، ويدركه من لم يدرك عباراتهم ، وينتفى عنهم خرصُ المتخرّصين ، وسوء تأويل الجاهلين ، ويكون بيانا لمن أراد سلوك طريقه ، مفتقراً إلى الله تعالى فى بلوغ تحقيقه ، بعد أن تصفّحت كتب الحذّاق فيه ، وتتبعتُ حكايات المتحققين له ، بعد العشرة لهم ، والسؤال عنهم .

وسميته بكتاب « التعرّف لمذهب أهل التصوّف » إخباراً عن الغرض بما فيه .

وبالله أستعين وعليه أتوكل ، وعلى نبيه أصلى ، وبه أتوسل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

الباب الأول

قولهم فى الصوفية ، ولم سُميت الصوفية صوفية

قالت طائفة : إنما سميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها ، ونقاء آثارها .

وقال بشر بن الحارث : الصوفى من صفا قلبه لله .

وقال بعضهم : الصوفى من صفت لله معاملته ، فصفت له من الله عز وجل كرامته .

وقال قوم : إنما سموا صوفية لأنهم فى الصف الأول بين يدى الله عز وجل

بارتفاع هممهم إليه ، وإقبالهم عليه ، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه[1] .

وقال قوم : إنما سموا صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفّة ، الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال قوم : إنما سموا صوفية للبسهم الصوف[2] .

وأما من نسبهم إلى الصفة والصوف فإنه عبّر عن ظاهر أحوالهم ، وذلك أنهم قوم قد تركوا الدنيا ، فخرجوا عن الأوطان ، وهجروا الأخـدان ، وساحوا فى البلاد ، وأجاعوا الأكباد ، وأعروا الأجساد ، لم يأخذوا من الدنيا إلا ما لا يجوز تركه ، من ستر عورة ، وسدّ جوعة .

فلخروجهم عن الأوطان سموا غرباء .

ولكثرة أسفارهم سموا سياحين .

ومن سياحتهم فى البرارى وإيوائهم إلى الكهوف عند الضرورات سماهم بعض أهل الديار « شكفتية » والشكفت بلغتهم : الغار والكهف .

وأهل الشام سموهم « جوعية » لأنهم إنما ينالون من الطعام قدر ما يقيم الصلب للضرورة ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « بحسب ابن آدم أكلات

---

(١) هذا وما بعده يرجع إلى النسبة إلى وصف وصفة ، وهو بعيد عن اللغة كما أشار إلى ذلك القشيرى فى الرسالة وغيره .

(٢) النسبة إلى الصوف صحيحة جداً من جهة اللغة ، وسينص الكلاباذى على ذلك ص ٢٥ ، وهو من جهة المعنى صحيح لأنهم فى الجملة يؤثرون الخشونة ، ومن مظاهرها لبس الصوف كما بينه قوله الآتى (ومن لبسهم وزيهم سموا صوفية...) .

يقمن صلبه »(١) .

وقال السرى السقطى ووصفهم فقال : أكلهم أكل المرضى ، ونومهم نوم الغرقى ، وكلامهم كلام الخرق(٢) .

ومن تخليهم عن الأملاك سموا فقراء .

قيل لبعضهم : من الصـــوفى ؟ قال : الذى لا يَملك ولا يُملك . يعنى لا يسترقه الطمع .

وقال آخر : هو الذى لا يملك شيئا ، وإن ملـكه بذله .

ومن لبسهم وزيهم سموا صوفية ، لأنهم لم يلبسوا لحظوظ النفس ما لان مسه ، وحسن منظره ، ولبسوا لستر العورة ، فتجزّوا بالخشن من الشعر ، والغليظ من الصوف .

ثم هذه كلها أحوال أهل الصفة ، الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنهم كانوا غرباء فقراء مهاجرين ، أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، ووصفهم أبو هريرة وفضالة بن عبيد فقالا : يخرون من الجوع حتى تحسبهم الأعراب مجانين . وكان لباسهم الصوف ، حتى إن كان بعضهم يعرق فيه فيوجد منه رائحة الضأن إذا أصابه المطر .

هذا وصف بعضهم لهم ، حتى قال عيينة بن حصن للنبى صلى الله عليه وسلم : إنه ليؤذينى ريح هؤلاء أما يؤذيك ريحهم ؟

ثم الصوف لباس الأنبياء ، وزىّ الأولياء .

---

(١) الحديث فى الترمذى وفى تيسير الوصول من حديث طويل متعارف أوله « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه » .

(٢) جمع أخرق كأحمق لفظا ومعنى وجمعاً ، وذلك لأنهم قد يؤثرون أن يبهموا أمورهم على الناس .

وقال أبو موسى الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم « إنه مرَّ بالصخرة من الروحاء سبعون نبياً حفاة عليهم العباء يؤمون البيت العتيق » .

وقال الحسن البصرى : كان عيسى عليه السلام يلبس الشعر ، ويأكل من الشجرة ، ويبيت حيث أمسى .

وقال أبو موسى : كان النبى صلى الله عليه وسلم يلبس الصوف ، ويركب الحمار ، ويأتى مدعاة الضعيف[١] .

وقال الحسن البصرى لقد أدركت سبعين بدرياً ما كان لباسهم إلا الصوف .

فلما كانت هذه الطائفة بصفة أهل الصفة فيما ذكرنا ، ولبسهم وزيهم زى أهلها ، سموا صفية[٢] وصوفية .

ومن نسبهم إلى الصُّفة والصفِّ الأول فإنه عبر عن أسرارهم وبواطنهم ، وذلك من ترك الدنيا وزهد فيها وأعرض عنها ، صفّى الله سره ، ونوّر قلبه .

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا دخل النور فى القلب انشرح وانفسح »[٣] ، قيل : وما علامة ذلك يارسول الله ؟ قال « التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله » .

فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم أن من تجافى عن الدنيا نور الله قلبه .

وقال حارثة حين سأله النبى صلى الله عليه وسلم : ماحقيقة إيمانك ؟ قال : عزفت بنفسى عن الدنيا ، فأظمأت نهارى ، وأسهرت ليلى ، وكأنى أنظر إلى

---

(١) وردت عدة أحاديث ثابتة فى لبس النبى صلى الله عليه وسلم للصوف ، وركوبه الحمار ، وإجابته للدعوة .

(٢) التسمية بصفية كالتسمية بشكفتية وجوعية ونورية مما أفدناه من هذا الكتاب .

(٣) قال الحافظ العراقى فى تخريج أحاديث الأحياء (إن صدر هذا الحديث رواه الحاكم فى المستدرك) .

عرش ربي بارزا ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون ، وإلى أهل النار يتعادون[١] .

فأخبر أنه لما عزف عن الدنيا نور الله قلبه ، فكان ما غاب عنه بمنزلة مايشاهده . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من أحب أن ينظر إلى عبد نور الله قلبه فلينظر إلى حارثة ، فأخبر أنه منوّر القلب .

وسميت هذه الطائفة نورية لهذه الأوصاف

وهذا أيضا من أوصاف أهل الصفة ، قال الله تعالى : (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المتطهرين)[٢] .

والتطهر بالظواهر عن الأنجاس ، وبالبواطن عن الأهجاس .

وقال الله تعالى : (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله)[٣] .

ثم لصفاء أسرارهم تصدق فراستهم .

قال أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله »[٤] .

---

(١) هذا الحديث أورده الغزالي في فضل الزهد من كتاب الإحياء ، وقال فيه العراقي : رواه البزار من حديث أنس ، والطبراني من حديث الحارث بن مالك ، كلا الحديثين ضعيف .

(٢) التوبة : ١٠٨ . (٣) النور : ٣٧ .

(٤) هذا الحديث رواه البخاري في التاريخ والترمذي عن أبي سعيد الخدري ، والترمذي الحكيم والطبراني وابن عدي عن أبي أمامة الباهلي ، وابن جرير الطبري عن ابن عمر كما في الجامع الصغير للسيوطي وشرحه للعزيزي . وبين العزيزي الفراسة نقلا عن المناوي بأنها الاطلاع على ما في الضمائر بسواطع الأنوار المشرقة على قلبه ، وفسر اتقاء الفراسة بتجنب المعاصي خشية إطلاعه ، وفيه نظر ظاهر .

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : ألقى فى روعى أن ذا بطن بنت خارجة ، فكان كما قال .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الحق لينطق على لسان عمر »[1] .

وقال أبو أويس القرنى لهرم بن حيان حين سلم عليه : وعليك السلام ياهرم بن حيان ، ولم يكن رآه قبل ذلك ، ثم قال له : عرف روحى روحك .

وقال أبو عبد الله الأنطاكى : إذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم بالصدق فإنهم جواسيس القلوب يدخلون فى أسراركم ويخرجون من هممكم .

ثم من كان بهذه الصفة من صفوة سرّه وطهارة قلبه ونور صدره فهو فى الصف الأول ، لأن هذه أوصاف السابقين .

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفا بغير حساب » ثم وصفهم وقال : « الذين لا يرقون ولا يسترقون ، ولا يكوون ولا يكتوون : وعلى ربهم يتوكلون »[2] .

فلصفاء أسرارهم ، وشرح صدورهم ، وضياء قلوبهم : صحت معارفهم بالله ، فلم يرجعوا إلى الأسباب ثقة بالله عز وجل ، وتوكلا عليه ، ورضاً بقضائه .

فقد اجتمعت هذه الأوصاف كلها ، ومعانى هذه الأسماء كلها فى أسامى القوم وألقابهم ، وصحت هذه العبارات وقربت هذه المآخذ .

وإن كانت هذه الألفاظ متغيرة فى الظاهر ، فإن المعانى متفقة لأنها إن أخذت من الصفاء والصفوة كانت صَفَوِية .

وإن أضيفت إلى الصف أو الصُّفّة كانت صَفّيّة أو صُفية ، ويجوز أن

---

(١) الذى رأيته فى هذا المعنى : إن الله تعالى جعل الحق على لسان عمر وقلبه ، وهو فى الجامع الصغير ، وقال : إنه من رواية أحمد والترمذى عن ابن عمر ، ومن رواية أحمد وأبى داود والحاكم عن أبى ذر ، وإنه صحيح الإسناد .

(٢) رواه الشيخان .

يكون تقديم الواو على الفاء فى لفظ الصوفية ، وزيادتها فى لفظ الصُّفية والصُّفية إنما كانت من تداول الألسن .

وإن جعل مأخذه من الصوف : استقام اللفظ ، وصحت العبارة من حيث اللغة.

وجميع المعانى كلها من التخلى عن الدنيا وعزوف النفس عنها وترك الأوطان ولزوم الأسفار ، ومنع النفوس حظوظها ، وصفاء المعاملات ، وصفوة الأسرار ، وانشراح الصدور وصفة السباق .

وقال بندار بن الحسين : الصوفى من اختاره الحق لنفسه فصافاه ، وعن نفسه برّأه ، ولم يرده إلى تعمّل وتسكلف بدعوى(١) .

وصوفى على زنة عوفى ، أى عافاه الله فعوفى وكوفى، أى كافاه الله فكوفى ، وجوزى ، أى جازاه الله ، ففعل الله به ظاهر فى اسمه والله المتفرد به .

وقال أبو على الروذبارى وسئل عن الصوفى فقال : من لبس الصوف على الصفاء ، وأطعم الهوى ذوق الجفاء ، وكانت الدنيا منه على القفا ، وسلك منهاج المصطفى .

وسئل سهل بن عبد الله التسترى: من الصوفى ؟ فقال: من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله من البشر ، واستوى عنده الذهب والمدر .

وسئل أبو الحسن النورى : ما التصوف ؟ فقال : ترك كل حظ للنفس .

وسئل الجنيد عن التصوف ، فقال : تصفية القلب عن موافقة البرية ، ومفارقة الأخلاق الطبيعية ، وإخماد الصفات البشرية ، ومجانبة الدواعى النفسانية ، ومنازلة الصفات الروحانية ، التعلق بالعلوم الحقيقية ، واستعمال ما هو أولى على الأبدية ، والنصح لجميع الأمة ، والوفاء لله على الحقيقة ،

---

(١) لو أخر هذه الفقرة وهى قوله (وجميع المعانى ... إلى ما بعد نقل الأقوال لكان أدق فى التصنيف لأنها تصلح للتعقيب عليها) .

واتبـاع الرسول صلى الله عليه وسلم فى الشريعـة[١] .

وقال يوسف بن الحسين : لـكل أمة صفوة ، وهم وديعة الله الذين أخفاهم عن خلقه ، فإن يكن منهم فى هذه الأمة ، فهم الصوفية .

قال رجل لسهل بن عبد الله التسترى : من أصحبُ من طوائف الناس ؟ فقال : عليك بالصوفية ، فإنهم لا يستـكثرون ، ولا يستنـكرون شيئا ، ولـكل فعل عندهم تأويل ، فهم يعذرونك على كل حال .

وقال يوسف بن الحسين : سألت ذا النون من أصحبُ ؟ فقال : من لا يملك ولا ينـكر عليك حالا من أحوالك، ولا يتغير بتغيرك وإن كان عظيما، فإنك أحوج ما تـكون إليه أشد ما كنت تغيراً .

وقال ذو النون : رأيت امرأة ببعض سواحل الشام ، فقلت لها : من أين أقبلت رحمك الله ؟ قالت : من عند قوم تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ، قلت : وأين تريدون ؟ قالت : إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، قلت : صفيهم لى ، فأنشأت تقول :

قَوْمٌ هُمُومُهُمُ باللهِ قد عَلِقَت ... فما لَهُمُ هِمَمٌ تَسمُو إلى أحَدِ[٢]
فمطلَبُ القَوْمِ مَوْلاهُم وَسَيِّدُهُم ... يَا حُسْنَ مَطلَبِهِم لِلْوَاحِدِ الصَّمَدِ
ما إن تنازعُهُمْ دُنيا وَلا شرفٌ ... مِن المَطاعِمِ وَاللَّذَّاتِ وَالوَلَدِ
وَلا لِلُبْسِ ثِيابٍ فَائِقٍ أنِقٍ ... وَلا لِرَوْحِ سُرُورٍ حَلَّ فى بَلَدِ
إلا مُسارَعَةً فى إثرِ منزِلَةٍ ... قَدقارَبَ الخطْوَ فيها باعِدُ الأبَدِ
فَهُمْ رَهائِنُ غُدْرَانٍ وَأَوْدِيةٍ ... وَفى الشَّوامِخِ تَلقَاهُمْ مَعَ العَدَدِ[٣]

---

(١) هذه الصفات فى الواقع من صميم الدين ، ويبدو أنه أراد بتصفية القلب عن موافقة البرية ألا يساير الصوفى الناس الشهوات والمـآرب لا ترك الوفاق فإنه خير.

(٢) هموم جمع هم .. وهو الطلب .. وهمم جمع همة وهى ما تهم به من أمر .

(٣) رهائن جمع رهين . . تريد أنهم مبتعدون فى هذه الأماكن التى لا أنس فيها بغير الله سبحانه .

الباب الثانى

فى رجال الصوفية[1]

ممن نطق بعلومهم ، وعبر عن مواجيدهم ، ونشر مقاماتهم ، ووصف أحوالهم قولا وفعلا بعد الصحابة رضوان الله عليهم : على بن الحسين زين العابدين[2] ، وابنه محمد بن على الباقر[3] ، وابنه جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنهم[4] ، بعد على ، والحسن ، والحسين رضى الله عنهم ، وأويس

---

(١) نرى من تكملة النقص فى هذا الكتاب التعريف بالأسماء الواردة فيه جهد الاستطاعة تأسياً بالقشيرى وغيره .

(٢) الإمام على بن الحسين بن على . . وهو على الأصغر ، وأما الأكبر فقتل. وفيه انحصر أبناء الحسين : كان إماماً عابداً زاهداً ورعاً شديد الخوف من الله عز وجل .. وكان لا يترك قيام الليل فى سفر ولا حضر. توفى بالبقيع سنة ٩٩ وهو ابن ثمان وخمسين سنة . وقال الشعرانى : إن رأسه نقلت إلى مصر ودفنت بمصر العتيقة . وله ترجمة فى كتابنا والتراجم الإسلامية الجليلة .

(٣) أبو جعفر محمد بن علىّ السابق ذكره . . قال النووى : سمى الباقر لأنه بقر العلم أى شقة فعرف حقيقته ، كان يقول : ليس فى الدنيا شىء أعون من الإحسان إلى الإخوان . توفى سنة ١١٧ هـ عن ثلاث وسبعين سنة .وأوصى أن يدفن فى قميصه الذى كان يصلى فيه .

(٤) محمد الباقر : كان إماماً فقيهاً ورعاً كريماً ، يغشى ساحته الإمام أبو حنيفة رضى الله عنه للأخذ عنه ، وكذلك الثورى وغيره .. وروى أن الثورى دخل عليه وهو يرتدى جبة جميلة فقال له . أنتم من بيت نبوة تلبسون هذا ؟ فأراه تحتها ثوباً مرفقاً .. فقال للثورى : أرنى من تحت جبة ، فإذا ثوب من خز ، فخجل الشعبى . توفى بالمدينة سنة ٢٢٨ هـ .

القرنى[١] وهرم بن حيان[٢] ، والحسن بن أبى الحسن البصرى[٣] وأبو حازم سلمة بن دينار المدنى[٤] ، ومالك بن دينار[٥] ، وعبد الواحد بن زيد[٦] ،

---

(١) كان من أكابر زهاد التابعين ، وكان خلق الثياب ، دائم الإطراق والخشوع ، لا يكاد يرى للناس إلا مرة أو مرتين فى العام . وكان مشغولا بخدمة أمه فلم يلق رسول الله صلى الله عليه وسلم مع معاصرته له . ويرى أن النبى صلى الله عليه وسلم ذكره لأصحابه وأوصى به عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٢) كان من كبار التابعين ، ذكره الشعرانى فى الطبقات ، وأورد من كلامه : صاحب الكلام إما أن يمضى فيه فيخصم ، أو يغرق فيه فيأثم .

(٣) يذكر أنه سيد التابعين من أهل البصرة . . كان آية فى الزهد والمعرفة والبيان والإرشاد ، وقد غلب عليه الخوف حتى كأن النار لم تخلق إلا له . ومن مفرداته (شر الناس للميت أهله يكون عليه ولا يهون عليهم قضاء دينه) . . له ترجمة طويلة فى كتابنا والتراجم الإسلامية .

(٤) أبو حازم : سلمة بن دينار من أئمة التابعين الذين جمعوا بين الشريعة والحقيقة ، ومن كلامه : (أدركت العلماء والأمراء والسلاطين يأتونهم فيقفون على أبوابهم كالعبيد حتى إذا كان اليوم رأينا الفقهاء والعباد هم الذين يأتون الأمراء والأغنياء ، فلما رأوا منهم ذلك ازدروهم واحتقروهم) .

(٥) أبو يحيى التابعى العظيم المتوفى سنة ١٣١ . . ومن كلامه (من علامة حب المرء للدنيا أن يكون دائم البطنة قليل الفطنة همه بطنه وفرجه يقول : متى أصبح فألهو وألعب وآكل وأشرب ، متى أمسى فأنام ، جيفة بالليل ، بطال بالنهار) .

(٦) كان عبد الواحد ممن أدركوا إمام التابعين الحسن البصرى وقالوا : إنه صلى الغداة بوضوء العشاء أربعين سنة . . ومن كلامه (مثل المؤمن من مثل الولد فى الرحم لا يحب الخروج فإذا خرج لم يحب أن يرجع) .

وعتبة الغلام[١] ، وإبراهيم بن أدهم[٢] ، والفضيل بن عياض[٣] ، وابنه على بن الفضيل ، وداود الطائى[٤] ، وسفيان بن سعيد ،

---

(١) سمى بالغلام لأنه كان فى العبادة كأنه غلام رهبان لا لصغره . كان يأوى إلى المقابر والصحارى ويخرج إلى السواحل فيقيم بها عدا يوم الجمعة ، وكانوا يشبهونه فى الحزن بالحسن البصرى .. مات شهيداً فى قتال الروم .

كان من كورة بلخ من أولاد الملوك وخرج للصيد فهتف به هاتف : ايقظن من غفلة فى الدنيا .. تصوف ، وخرج إلى مكة فصحب الثورى والفضيل بن عياض وكان يقول : من علامة العارف أن يكون أكثر همه الخير والعبادة ، وأكثر كلامه الثناء والمدحة .. وكثيراً ما كان ينشد :

للقمة بجر يسن الملح آكلها الزمن ثمرة تحشى بزنبثور

يريد مالا منة فيه ولا إثم خير الطعام . توفى سنة ١٦١ هـ .

(٢) جده مسعود بن بشر التميمى . . ولد بسمرقند ونشأ بأبيورد . . وهو أول طبقات الصوفية فى اعتبار أبى عبد الرحمن السلمى . توفى سنة ١١٧ هـ بمكة ومن فى آخر الزمن أقوام يكونون إخوان العلانية أعداء السريرة .

ويقول فى قوله سبحانه (إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين) الذين يحافظون على الصلوات الخمس .

(٣) يكنى أبا سليمان . . وكان كبير الشأن فى الزهد حتى إنهم دخلوا بيته قبل وفاته فلم يجدوا غير دن صغير فى خبز يابس ومطهرة وقطعة من الطوب هى مخدته . . وكان يقول لأصحابه : إياكم وأن يتخذ أحدكم فى داره أكثر من زاد الراكب إلى البلاد البعيدة . توفى سنة ١٦٥ هـ .

(٤) أمير المؤمنين فى الحديث ولد بالكوفة سنة ٩٩ هـ وتوفى بالبصرة سنة ١٦١ بعد أن أقام بها طويلا . . قال الشعرانى : كان عالم الأمة وعابدها وزاهدها ، وكان يقول : إذا فسد العلماء فمن يصلحهم وفسادهم بميلهم إلى الدنيا . نسأل الله العافية .

وسفيان بن عيينة[١] ، وأبو سفيان الدارانى[٢] ، وابنه سليمان ، وأحمد ابن الجوارى[٣] الدمشقى ، وأبو الفيض ذو النون بن إبراهيم المصرى[٤] ، وأخوه ذو الكفل ، والسرى بن المفلس السقطى[٥] ، وبشر الحارث

---

(١) أبو عمران من موالى رهط ميمونة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ولد سنة ١٠٧ وكان من رجال الحديث المبرزين وكان أشد الناس اختصاراً فى قوله . . سئل عن قول طاوس فى ذكاة السمك والجراد فقال (ذكاته صيده) قالوا إنه أدرك سبعة وثمانين من التابعين وشهد له العلماء بالإحاطة وهو أحد شيوخ الشافعى وشهد له أحمد بتفرده بعلم القرآن والسنة توفى سنة ١٩٨ عن ثمان وتسعين سنة .. ومن كلامه (من لا ينفع به فلا عليك أن لا تعرفه) .

(٢) إسمه عبد الرحمن بن عطية ينسب إلى داران بدمشق وكان كبير الشأن فى علوم الحقائق والورع توفى سنة ٢٨٥ هـ .

ومن كلامه : لا ينبغى الفقير أن يزيد فى نظافة ثيابه على نظافة قلبه بل يشاكل ظاهره باطنه .

(٣) أبو محمد بن ميمون أبى الجوارى من أهل دمشق صحب أبا سليمان الدارانى وسفيان بن عيينة . . قال عنه الجنيد أحمد بن أبى الجوارى ريحانة الشام توفى سنة ٢٢٠ هـ ، وكان إذا اطلع أحد من خلقه الحسن يقول لنفسه : ما هذه الفعلة حتى ظهرت محاسنك .

(٤) هو ثوبان بن إبراهيم . . كان أبوه من أهل النوبة وصفه القشيرى بأنه أوحد أهل الأرض علما وورعا وحالا وأدباً توفى سنة ٢٤٥ هـ .

ومن كلامه (إياك أن تكون للمعرفة مدعيا وللزهد محترفا وفر من كل شىء إلى ربك) .

(٥) خال الجنيد وأستاذه . . صحب معروفا الكرخى . . قال الشعرانى : كان أوحد أهل زمانه فى الورع والأحوال السنية وعلم التوحيد وهو أول من تكلم فيه ببغداد ومات بها سنة ٢٥١ هـ .

ومن كلامه : من أراد أن يسلم له دينه ويستريح بدنه ويقل غمه من سماع الكلام الذى يغمه فليعتزل الناس لأن هذا زمان عزلة ووحدة ؟ .

الحافى[١] ، ومعروف الكرخى[٢] ، وأبو حنيفة المرعشى[٣] ، ومحمد بن المبارك الصورى[٤] ويوسف بن أسباط[٥] رحمهم الله .

---

(١) أصله من مروسكن بغـــداد ومات بها سنة ٢٢٧ وصحب الفضيل ابن عياض . . كان عالما وورعا كبير الشأن ومن كلامه : سيأتى على الناس زمان تكون الدولة فيه للحمقى والأراذل على أهل العقول والأكابر .

(٢) أبو سعيد معروف بن فيروز الكرخى من جملة المشهورين بالزهد والورع والفتوة . كان مجاب الدعوة وهو من موالى على بن موسى الرضا توفى ببغداد سنة ٢٠٠هـ .

ومن كلامه : إذا أراد الله بعبد خيرا فتح له باب العمل وأغلق عنه باب الجدل .

(٣) أورده الشعرانى باسم حذيفة المرعشى وقال : إنه توفى سنة ٢٠٧ فهل هما مختلفان أب وابنه . . وبما أورد الشعرانى من كلام حذيفة : إن لم تخف أن يعذبك الله على خير أعمالك فأنت هالك ـ وتأويل ذلك أن العمل قل أن يسلم من مخالفة ولو كان صالحا .

(٤) أورده الشعرانى بعنوان عبد الله الصورى فهل كان لقبه عبد الله أو هما شخصان .

وقد أورد الشعرانى من كلام عبد الله هذا قوله : أعمال الصادقين بالقلوب وأعمال المرائين بالجوارح . . من ألزم نفسه بشىء لا يحتاج إليه ضيع من أمواله ما يحتاج إليه .

(٥) كان يعمل الخوص بيده ويتقوت منه حتى مات سنة ١٩٠ تقريبا وليس على جسده أوقية لحم . . قالوا إنه أقام أربعين سنة وليس له إلا قميصان يغسل أحدهما ويلبس الآخر .

ومن كلامه : (غاية التواضع أن تخرج من بيتك فلا ترى أحدا إلا رأيت أنه خير منك) .

ومن أهل خراسان ، والجبل ، أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامى[1] ، وأبو حفص الحداد النيسابورى[2] ، وأحمد بن خضرويه البلخى[3] ، وسهل بن عبد الله التسترى[4] ، ويوسف بن الحسين الرازى[5] ، وأبو بكر بن طاهر الأبهرى[6] ، وعلى بن سهل بن الأزهر

---

(١) كان جده مجوسيا فأسلم ... وكان طيفور البسطامى من كبار الزهاد العباد توفى سنة ٢٦١ .. ومما روى عنه اختلاف العلماء رحمته إلا فى تجريد التوحيد . . ولقد عملت فى الجهاد ثلاثين سنة فما وجدت شيئا أشد على العبد من العلم ومتابعته. عرفت الله بالله وعرفت مادون الله بنور الله .

(٢) عمرو بن سالم . . قال الشعرانى : إنه كان أوحد الأئمة ومن كبار المشايخ مات سنة ٢٧٠ ﻫ .

ومن كلامه (من هوان الدنيا على أنى لا أبخل بها على أحد) .

(٣) كان من أكابر مشايخ خراسان صحب حاتما الأصم ورحل إلى أبى يزيد البسطامى . . وكان من المشهورين بالفتوة مات سنة ٣٤٠ ﻫ .

ومن كلامه : ولى الله لا يرسم نفسه بسيما ولا يكون له اسم يتسمى به .

(٤) أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس أحد أئمة القوم وعلمائهم والمتكلمين فى علوم الرياضيات والإخلاص مات سنة ٢٨٣ ﻫ .

ومن كلامه (شكرا لعلم العمل . . وشكرا لعمل زيادة العلم) .

(٥) كان شيخ الرى والجبال فى وقته وكان عالما أديبا صحب ذا النون المصرى وأبا تراب النخشبى ومات سنة ٣٣٤ ﻫ .

ومن دعائه : اللهم إنا نبات زرائع نعمتك فلا تجعلنا حصائد نعمتك .

(٦) كان من كبار مشايخ الجبل المعروفين بالزهد والورع صحب يوسف بن الحسين الرازى وغيره وكانت وفاته سنة ٣٣٠ ﻫ تقريبا .

ومن كلامه : همة الصالحين الطاعة بلا معصية وهمة العلماء المزيد فى الصواب.. وهمة العارفين اعظام الله تعالى فى قلوبهم . وهمة أهل الشوق سرعة الموت .. وهمة المقربين سكون القلب إلى الله تعالى .

الأصفهانى[١] ، وعلى بن محمد البارزى ، وأبو بكر الكتانى الدينورى ، وأبو محمد الحسن بن محمد الرحانى ، والعباس بن الفضل بن قتيبة بن منصور الدينورى ، وكهمس بن على الهمدانى ، والحسن بن على بن يزدانيار رضى الله عنهم أجمعين .

الباب الثالث

فيمن نشر علوم الإشارة كتبا ورسائل

أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادى[٢] ، وأبو الحسين أحمد ابن محمد بن عبد الصمد النورى[٣] ، وأبو سعيد أحمد بن عيسى الخزاز[٤]

---

(١) كان من قدماء مشايخ أصفهان وكان من أقران الجنيد وكان يكاتبه ويراسله ولم نطلع على تاريخ وفاته بالتحديد .

ومن كلامه : رأيت الناس قد أمرهم تعظيم نفوسهم وتحسين ألفاظهم فلا يتفرغون منها إلى من عظمهم بتحسين الخلقة .. وأنطق ألسنتهم بتوحيده .

(٢) اشتهر بلقب سيد الطائفة (الصوفية) وكان أبوه يبيع الزجاج . نشأ بالعراق وكان فقيها على مذهب الإمام أبى ثور ثم بلغ فى التصوف هذا المبلغ الجليل .. توفى سنة ٢٩٧ ﻫ ببغداد وقبره ظاهر بها .

ومن كلامه : أن الله تعالى يخلص إلى القلوب من بره على حسب ما تخلص إليه القلوب من ذكره . فانظر ماذا خالط قلبك .

(٣) يعرف بابن البغوى . . قال السلمى فى الطبقات : لم يكن فى وقته أحسن طريقة منه ولا ألطف كلاما توفى سنة ٢٩٥ ﻫ . سئل عن التصوف فقال : ليس التصوف رسوما ولا علوما ولكنها أخلاق .

(٤) كان من أهل بغداد صحب ذا النون المصرى وسريا السقطى وبشر بن الحارث وغيرهم . قيل إنه أول من تكلم فى علم الفناء والبقاء توفى سنة ٢٧٩ ﻫ كما فى طبقات السلمى والشعرانى ـ وقال فى معنى الخبر : جلبت القلوب فى حب من أحسن إليها ، واعجبا ممن لم ير محسناً غير الله كيف لا يميل بكليته إليه .

ويقال له : لسان التصوف ، وأبو محمد رويم بن محمد(١) ، وأبو العباس أحمد ابن عطاء البغدادى(٢) ، وأبو عبد الله عمرو بن عثمان المكى(٣) ، وأبو يعقوب يوسف بن حمدان السوسى ، وأبو يعقوب إسحاق بن محمد بن أيوب النهرجورى(٤) ، وأبو محمد الحسن بن محمد الجريرى(٥) ، وأبو عبد الله محمد

---

(١) فى طبقات السلمى رويم بن أحمد ويقال رويم بن محمد بن أحمد والأول أصح . . وهو من أهل بغداد ومن جلة مشايخهم وكان فقيها على مذهب داود الأصفهانى توفى سنة ٣٠٣ هـ سئل عن الفتوة فقال . أن تعذر إخوانك فى زلاتهم ولا تعاملهم بما تحتاج أن تعتذر منه .

(٢) أورده الشعرانى فى الطبقات بعنوان أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل ابن عطاء . وقال إنه كان من ظروف المشايخ الصوفية وعلمائهم . صحب الجنيد وغيره، وكان أبو سعيد الخراز يقول فى شأنه : التصوف خلق وما رأيت من أهله إلا الجنيد وابن عطاء : مات سنة ٣٠٩ هـ .

ومن كلامه : أدن قلبك من مجالسة الذاكرين لعله ينتبه من غفلته وإياك أن تكون حاضرا عند الذاكرين ولا تذكر معهم فتمقت .

(٣) كان ينسب إلى الجنيد فى الصحبة ولقى الخراز وغيره من المشايخ ، وكان إمام الطائفة فى الأصول والطريقة وروى الأحاديث عن البخارى وغيره ، توفى سنة ٢٩١ هـ . قيل إنه رأى الحلاج يكتب شيئاً فقال ما هذا فقال أعارض القرآن فدعا عليه فأصيب بالنكبة .

ومن كلامه: كل ما توهمه قلبك أو سنح فى مجارى فكرك أو خطر فى معارضات قلبك من حسن أو بهاء أو أنس أو ضياء أو شبح أو شخص أو خيال فالله عز وجل بخلاف ذلك كله . . هو أجل وأعظم وأكبر .

(٤) صحب الجنيد وعمرو بن عثمان المكى وأقام بالحرم مجاورا عدة سنين توفى سنة ٣٠٣ .

ومن كلامه : مفاوز الدنيا تقطع بالأقدام ومفاوز الآخرة تقطع بالقلوب

(٥) كان من كبار أصحاب الجنيد . . وصحب سهل بن عبد الله التسترى . . قعد بعد الجنيد فى مجلسه لتمام حاله وصحة علمه . . مات سنة ٣١١ هـ .

ابن على الكتانى[١] ، وأبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الخواص[٢] ، وأبو على الأوراجى ، وأبو بكر محمد بن موسى الواسطى ، وأبو عبد الله الهاشمى ، وأبو عبد الله هيكل القرشى[٣] ، وأبو على الروذبارى[٤] ، وأبو بكر القحطبى ، وأبو بكر الشبلى[٥] ، وهو دلف بن جحدر ، رضوان الله عليهم أجمعين .

= ومن كلامه : أدل الأشياء على الله تعالى ثلاثة : ملكه الظاهر ثم تدبيره فى ملكه ثم كلامه الذى يستوفى كل شىء .

(١) أورده السلمى بكنية أبى بكر ثم قال : ويقال أبو عبد الله وأبو بكر أصح وهو من بغداد .. صحب الجنيد والخراز وغيرهما وجاور بمكة حتى مات سنة ٣٢٢هـ.
ومن كلامه : الشكر فى موضع الاستغفار ذنب والاستغفار فى موضع الشكر ذنب .

(٢) كان من أقران الجنيد والثورى وهو من أجل من سلك طريق التوكل مات سنة ٢٩١.
ومن كلامه : إنما العلم لمن اتبع العلم واستعمله واقتدى بالسنن وإن كان قليل العلم .

(٣) من قدماء أصحاب الجنيد والثورى . كان عالما فى الظاهر والباطن ولم يتكلم أحد فى أصول التصوف مثل كلامه مات بمرو بعد سنة ٣٢٠ هـ .
ومن كلامه : ابتلينا بزمان ليس فيه آداب الإسلام ولا أخلاق الجاهلية ولا أحلام ذوى المروءة .

(٤) كان جليل القدر وكان يعظم الفقراء أشد التعظيم ويقول « إنهم انتسبوا إلى الله تعالى » . . وكان يقول احتقار الفقراء سبب لارتكاب الرذائل وأقواله كثيرة فى طبقات الشعرانى .

(٥) هو أحمد بن محمد بن القاسم من أهل بغداد أقام بمصر حتى مات سنة ٣٢٢هـ وقد صحب الجنيد والثورى وغيرهما من الأكابر . . وكان عالما وحافظا وفقيها وأديبا .

ومن كلامه : ما ادعى أحد قط إلا لخلوه عن الحقائق . . ولو تحقق فى شىء لنطقت عنه الحقيقة وأغناه عن الدعاوى .

الباب الرابع

فيمن صنف فى المعاملات

أبو محمد عبد الله بن محمد[١] ، وأبو عبد الله أحمد بن عاصم[٢] الأنطاكيان وعبد الله بن حنف الأنطاكى[٣] ، والحارث بن أسد المحاسبى[٤] ، ويحيى ابن معاذ الرازى[٥] ، وأبو بكر محمد بن عمر بن الفضل الوراق الترمذى[٦] ،

---

(١) بغدادى المولد والمنشأ صحب الجنيد وغيره . . وكان فقيهاً على مذهب مالك (رضى) مات سنة ٣٣٤ هـ . وكان إذا دخل رمضان ضاعف من جده ونشاطه ويقول : هذا شهر عظمه ربى .

(٢) الراسى من أهل بغداد ومن أصحاب أبى العباس بن عطاء والحريرى ـ رحل إلى الشام ثم عاد توفى سنة ٣٦٧ هـ .

ومن كلامه : أعظم حجاب بينك وبين الحق اشتغالك بتدبير نفسك واعتمادك على عاجز مثلك .

(٣) هو من أقران بشر الحافى والسرى السقطى والمحاسبى ، ومن كلامه : إذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم بالصدق فإنهم جواسيس القلوب .

(٤) كوفى على طريقة الثورى . .

من كلامه : أنت لا تطيع من يحسن إليك فكيف تحسن إلى من يسىء إليك .

(٥) أبو عبد الله من علماء ومشايخ القوم بعلوم الظاهر وعلوم المعاملات والإشارات . وله كتب مشهورة منها كتاب الرعاية لحقوق الله وهو أكثر البغداديين توفى سنة ٢٤٣ .

ومن كلامه : لا ينبغى أن يطلب العبد الورع بتضييع الواجب . . العلم يورث المخافة . والزهد يورث الراحة . . والمعرفة تورث الإنابة .

(٦) الواعظ المتكلم خرج إلى بلخ وأقام بها ثم رجع نيسابور ومات بها سنة ٢٥٨ هـ .

ومن كلامه : ثلاث خصال من صفات الأولياء الثقة بالله فى كل شىء ـ والرجوع إليه فى كل شىء .

وأبو عثمان سعيد بن إسماعيل الرازى ، وأبو عبد الله محمد بن على الترمذى[١] ، وأبو عبد الله محمد بن الفضل البلخى[٢] ، وأبو على الجوزجانى ، وأبو القاسم ابن إسحاق بن محمد الحكيم السمرقندى[٣] .

وهؤلاء هم الأعلام المذكورون المشهورون ، المشهود لهم بالفضل ، الذين جمعوا علوم المواريث إلى علوم الاكتساب[٤] .

سمعوا الحديث ، وجمعوا الفقه ، والكلام ، واللغة ، وعلم القرآن ، تشهد بذلك كتبهم ومصنفاتهم .

ولم نذكر المتأخرين وأهل العصر ، وإن لم يكونوا دون من ذكرنا علما ، لأن الشهود يغنى عن الخبر عنهم[٥] .

وبالله التوفيق .

---

(١) من ترمذ . . له تصانيف كثيرة فى أنواع الرياضات والآداب والمعاملات ومن كلامه : ليس الفوز هناك بكثرة الأعمال إنما الفوز هنا بإخلاص الأعمال وتحسينها .

(٢) ولد فى بلخ ثم استوطن سمرقند حتى مات بها سنة ٣١٩ هـ . وكان من كبار شيوخ خراسان .

ومن كلامه : العجب ممن يقطع المفاوز حتى يصل إلى الكعبة والحرم لأن بهما الأنبياء كيف لا يقطع نفسه وهواه حتى يصل إلى قلبه لأن فيه آثار ربه .

(٣) من كبار مشايخ خراسان . . له تصانيف مشهورة فى علوم الأوائل والرياضات والمجاهدات . . صحب محمد بن على ومحمد بن الفضل وغيرهم .

ومن كلامه : من علامة السعادة للعبد تيسير الطاعة عليه وموافقته للسنة فى أفعاله ومحبته لأهل الصلاح وحفظ أخلاقه مع الإخوان وبذل معروفه للخلق واهتمامه بأمر المسلمين ومراعاته لأوقاته .

(٤) كأنه يريد بعلوم المواريث علوم الحقيقة فى اصطلاحهم وهى التى تنبع من القلب حين يصفو من الكدره فيؤتيه الله الحكمة ، وأما علم الإنسان فهو الذى ينشأ من التعلم والأخذ من الأشياخ بطريق الكسب .

(٥) الشهود حضورهم بين الناس .

الباب الخامس

شرح قولهم فى التوحيد

اجتمعت الصوفية على أن الله واحد ، فرد صمد ، قديم عالم ، قادر حيّ ، سميع بصير ، عزيز عظيم ، جميل كبير ، جواد رؤوف ، متكبر جبّار ، باق أول ، إله سيد ، مالك ربّ ، رحمن رحيم ، مريد حكيم ، متكلم ، خالق رزاق ، موصوف بكل ما وصف به نفسه من صفاته ، مسمى بكل ما سمى به نفسه ، لم يزل قديما بأسمائه وصفاته ، غير مشبه للخلق بوجه من الوجوه . لا تشبه ذاته الذوات ، ولا صفته الصفات ، لا يجرى عليه شىء من سمات المخلوقين الدالة على حدثهم ، لم يزل سابقا متقدما للمحدثات ، موجوداً قبل كل شىء ، لا قديم غيره ، ولا إله سواه .

ليس بجسم ، ولا شبح ، ولا صـــورة ، ولا شخص ، ولا جوهر ، ولا عرض . لا اجتماع له ولا افتراق ، لا يتحرك ولا يسكن[1] ، ولا ينقص ولا يزداد ؛ ليس بذى أبعاض ولا أجزاء ، ولا جوارح ولا أعضاء ، ولا بذى جهات ولا أماكن ، لا تجرى عليه الآفات ، ولا تأخذه السنات[2] ، ولا تداوله الأوقات[3] ، ولا تعيّنه الإشارات . لا يحويه مكن ، ولا يجرى

---

(١) الاجتماع لا يكون إلا عن تفرق شىء متعدد والافتراق لا يكون إلا بعد اجتماع ذلك المتعدد وكلاهما على الله محال . كما أن التحرك والسكون يستلزمان المكان والحيز وذلك لا يكون إلا فى الحوادث .

(٢) جمع سنة وهى أول النوم (لا تأخذه سنة ولا نوم)

(٣) تداوله . . تتداوله يريد أنه تنزه عن أن تمر به السنون جل شأنه ولا ينعته الإشارات لها بحدود لأنه لا جهة له ولا مكان كما يدل عليه ما بعده .

عليه زمان ، ولا تجوز عليه المماسة ولا العزلة[1] ، ولا الحلول فى الأماكن ، ولا تحيط به الأفكار ، ولا تحجبه الأستار ، ولا تدركه الأبصار .

وقال بعض الكبراء فى كلام له : لم يسبقه قبلٌ ، ولا يقطعه بعدٌ ، ولا يصادره من[2] ، ولا يوافقه عن ، ولا يلاصقه إلى ، ولا يحله فى ، ولا يوقفه إذ ، ولا يؤامره إن[3] ، ولا يُظله فوق ، ولا يُقله[4] تحت ، ولا يقابله حذاء ، ولا يزاحمه عند ، ولا يأخذه خلف ، ولا يحدّه أمام ، ولا يظهره قبل ، ولا يفنيه بعد ، ولا يجمعه كلّ ، ولا يوجده كان[5] ، ولا يفقده ليس ، ولا يستره خفاء . تقدّم الحدثَ قِدَمُه ، والعدمَ وجودُه ، والغايةَ أزلُه .

إن قلت : متى ، فقد سبق الوقتَ كونُه .

وإن قلت : قبل ، فالقبلُ بعده .

وإن قلت : هو ، فالهاء والواو خَلْقُه .

وإن قلت : كيف ، فقد احتجت عن الوصف بالكيفية ذاتُه .

وإن قلت : أين ، فقدم المكانَ وجودُه .

وإن قلت : ما هو ، فقد باين الأشياء هويتُه .

---

(١) المماسة والعزلة كالاجتماع والفرقة وأكثر هذه المعانى متداخلة لزيادة التوحيد .

(٢) تفيد ابتداء المكان و « عن » تفيد الانفصال عن المكان تعالى الله . وكذلك « إلى » لانتهاء المكان و «فى » لظرف المكان و « إذ» لتحديد الزمان.

(٣) يؤامره يخالجه كما يخالج المؤامر والمستشير ومعناها هو الشك لأنه العليم الخبير .

(٤) يقله : يحمله . ويقابله : يواجهه وحذاء مقابل وكل هذه العبارات لتأكيد الزمان والمكان .

(٥) لم يوجد بعد أن لم يكن لأنه هو الأول

لا يجتمع صفتان لغيره فى وقت ، ولا يكون بهما على التضاد . فهو باطن فى ظهوره ، ظاهر فى استتاره ، فهو : الظاهر الباطن ، القريب البعيد ، امتناعاً بذلك من الخلق أن يشبهوه .

فعله من غير مباشرة ، وتفهيمه من غير ملاقاة ، وهدايته من غير إيماء[1] .

لا تنازعه الهمم ، ولا تخالطه الأفكار .

ليس لذاته تكييف ، ولا لفعله تكليف .

وأجمعوا على أنه لا تدركه العيون ، ولا تهجم عليه الظنون ، ولا تتغير صفاته ، ولا تتبدل أسماؤه ، لم يزل كذلك ، ولا يزال كذلك ، هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم ، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

الباب السادس

شرح قولهم فى الصفات

أجمعوا على أن لله صفات على الحقيقة هو بها موصوف : من العلم ، والقدرة ، والقوة ، والعز ، والحلم ، والحكمة ، والكبرياء ، والجبروت ، والقدم ، والحياة ، والإرادة ، والمشيئة والكلام[2] .

---

(١) يفعل ما يشاء من غير مباشرة للأشياء ولا ماسة ويعلم عباده من غير ملاقاة ولا مواجهة كما يفعل المعلمون من الحوادث وإنما يلقى فى القلوب والعقول .

(٢) لم يذكر الصفات على طريقة علماء الكلام لأن صفات الله لا تعد وأسماؤه لا تحصى له الكمال كله ولغيره النقص .

وأنها ليست بأجسام ، ولا أعراض ، ولا جواهر ، كما أن ذاته ليس بجسم ، ولا عوض ، ولا جوهر .

وأن له سمعاً وبصراً ، ووجهاً ويداً ، على الحقيقة[1] ، ليس كالأسماع والأبصار والأيدى والوجوه .

وأجمعوا أنها صفات لله وليست بجوارح، ولا أعضاء ولا أجزاء .

وأجمعوا أنها ليست هى هو ولا غيره ، وليس معنى إثباتها أنه محتاج إليها وأنه يفعل الأشياء بها ، ولكن معناها : نفى أضدادها وإثباتها فى أنفسها ، وأنها قائمات به .

ليس معنى العلم نفى الجهل فقط ، ولا معنى القدرة بنفى العجز ولكن إثبات العلم والقدرة .

ولو كان بنفى الجهل عالما ، وبنفى العجز قادراً ، لكان المراد نفى الجهل والعجز عنه : عالما وقادراً[2] .

وكذلك جميع الصفات .

وليس وصفنا له بهذه الصفات صفة له ، بل وصفُنا صفتُنا وحكاية عن صفة قائمة به ، ومن جعل صفة الله وصفه له من غير أن يثبت لله صفة

---

(١) يتجه إلى مذهب السلف الذين يقولون إن كلا من الوجه والعين ونحوهما صفات الله على سبيل الحقيقة من غير مشابهة للحوادث ليس كمثله شىء .
أما التأويل فهو مذهب الخلف الذين أرادوا أن يفلسفوا الدين فعقدوه غفر الله لهم .

(٢) حق العبارة لكان المراد بنفى الجهل والعجز عنه كونه عالما وقادراً .
فالمراد أن كل صفة منفردة فى مدلولها عن غيرها فنفى الجهل غير كونه عالما ونفى العجز غير كونه قادرا . وكل ذلك احتياط فى إثبات الصفات من غير توقف بعضها على بعض حتى لا تتداخل .

على الحقيقة ، فهو كاذب عليه فى الحقيقة ، وذاكر له بغير وصفه[1] وليس هذا كالذكر ، فيكون مذكوراً بذكر فى غيره لأن الذكر صفة للذاكر وليس بصفة للمذكور ، والمذكور مذكر بذكر الذاكر ، والموصوف ليس بموصوف بوصف الواصف ، ولو كان وصف الواصف صفة له لكانت أوصاف المشركين والكفرة صفات له ، كنحو الزوجة والولد والأنداد .

وقد نزّه الله تعالى نفسه عن وصفهم له فقال : (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ)[2] فهو جل وعز موصوف بصفة قائمة به ليست ببائنة عنه ، كما قال تعالى : (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ)[3] . وقال : (أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ)[4] ، وقال : (وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ)[5] . وقال : (ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)[6] (ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)[7] (فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً)[8] (ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)[9] .

وأجمعوا أنها لا تغاير ولا تماثل ، وليس علمه قدرته ، ولا غير قدرته ، وكذلك جميع صفاته من السمع ، والبصر ، والوجه ، واليد ، ليس سمعه

---

(١) صفة الله وصف قائم بذاته ثابت له سواء وصفه به غيره أم لم يصفه . وواضح أن وصفه لله غير صفة الله إذاً وبهذا يتبين الفرق بين الصفة والذكر . فإن الذكر فعلك أنت بخلاف الصفة وقد أوضح ذلك المعنى ببيان الأوصاف الباطلة كما فى عقائد المشركين والضالين فإن وصفهم ليس صفة لله .

(٢) سورة الأنعام آية ٦ : ١٠٠ — (٣) سورة البقرة آية ٢ : ٢٥٦ .
(٤) سورة النساء آية ٤ : ١٦٤ — (٥) سورة الملائكة آية ٣٥ : ١٢ .
(٦) سورة الذاريات آية ٥١ : ٥٨ — (٧) سورة الحديد آية ٥٧ : ١٢ .
(٨) سورة الملائكة آية ٣٥ : ١٠ — (٩) سورة الرحمن آية ٥٥ : ٨٧ .

بصره، ولا غير بصره، كما أنه ليس هي هو ولا غيره(١) .

واختلفوا فى الإتيان والمجىء والنزول، فقال الجمهور منهم : إنها صفات له، كما يليق به، ولا يعبر عنها بأكثر من التلاوة والرواية، ويجب الإيمان بها، ولا يجب البحث عنها(٢) .

وقال محمد بن موسى الواسطى : كما أن ذاته غيرُ معلولة، كذلك صفاته غير معلولة، وإظهار الصمدية إياس عن المطالعة على شىء من حقائق الصفات، أو لطائف الذات .

وأولها بعضهم فقال : معنى الإتيان منه : إيصاله ما يريد إليه، ونزوله إلى الشىء : إقباله عليه، وقربه : كرامته، وبعده : إهانته؛ وعلى هذا جميع هذه الصفات المتشابهة(٣) .

الباب السابع

اختلافهم فى أنه لم يزل خالقا

واختلفوا فى أنه لم يزل خالقا؛ فقال الجمهور منهم، والأكثرون من القدماء منهم، والكبار : إنه لا يجوز أن يحدث لله تعالى صفة لم يستحقها فيما لم يزل، وأنه لم يستحق اسم الخالق لخلقه الخلق، ولا لإحداث البرايا استحق اسم البارىء، ولا بتصوير الصور استحق اسم المصور؛ ولو كان

---

(١) هل هذا مما يقول به المتكلمون أيضاً وما معنى كون الصفات لا تتغاير وهى مختلفة المفاهيم . فالعلم صفة انكشاف والقدرة صفة يوجد الله سبحانه بها ويعدم وهكذا . وما الداعى إلى الخوض فى مثل ذلك وهو على هذا التعقيد أرجح أن نكف عن بحثه .

(٢) هذا المذهب عظيم واجب الاتباع لما فيه من كمال الإيمان .

(٣) هو مذهب الخلف وقد اضطروا إليه تحت سلطان الفلسفة والبحث للتقريب وصفات الله سبحانه فوق التأويل .

كذلك لكان ناقصا فيما لم يزل ، وتم بالخلق ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً[١].

وقالوا : إن الله تعالى لم يزل خالقا ، بارئا ، مصوراً ، غفوراً ، رحيما ، شكوراً ؛ وكذلك جميع صفاته التي وصف بها نفسه يوصف بها كلها في الأزل ؛ كما يوصف بالعلم ، والقدرة ، والعز ، والكبرياء ، والقوة ؛ كذلك يوصف بالتكوين ، والتصوير ، والتخليق ، والإرادة ، والكرم ، والغفران ، والشكر .

ولا يفرقون بين صفة هي فعل ، وبين صفة لا يقال إنها فعل ؛ نحو : العظمة ، والجلال ، والعلم ، والقدرة .

وكذلك : أنه لما ثبت أنه سميع ، بصير ، قادر ، خالق ، بارىء ، مصور ، وأنه مدح له ، فلو استوجب ذلك بالخلق ، والمصور ، والمبرىء لكان محتاجا إلى الخلق ، والحاجة أمارة الحدث .

وأخرى : أن ذلك يوجب التغيير والزوال من حال إلى حال ؛ فيكون غير خالق ثم يكون خالقا ؛ وغير مريد ثم يكون مريداً ؛ وذلك نحو الأقوال الذي انتفى منه خليله إبراهيم عليه السلام ، بقوله : (لا أحب الآفلين)[٢] .

والخلق ، والتكوين ، والفعل ، صفات لله تعالى ، وهو بها في الأزل موصوف والفعل غير المفعول ، وكذلك التخليق ، والتكوين ؛ ولو كانا جميعا واحداً لكان كون المكونات بأنفسها ، لأنه لم يكن من الله إليها معنى سوى أنها لم تكن فكانت . . .

---

(١) مضمون هذا كله أنه يتصف بالخلق من قبل أن يخلق كما اتصف بالعلم والكلام وغيرهما في الأزل .

وهذا الكلام كله غاية في التنظيم للحق جل شأنه . وتعالت كبرياؤه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

(٢) سورة الأنعام (٦ : ٧٦) .

ومنع بعضهم : من أن يكون فيما لم يزل خالقا وقال : إنه يوجب كون الخلق معه فى القدم .

وأجمعوا أنه لم يزل مالكا إلهاً رباً . ولا مربوب ولا مملوك ، وكذلك يجوز أن يكون خالقا بارئاً مصوراً ولا مخلوق ولا مبروء ولا مصور .

الباب الثامن

اختلافهم فى الأسماء

واختلفوا فى الأسماء ، فقال بعضهم : أسماء الله ليست هى الله ولا غيره كما قالوا فى الصفات ، وقال بعضهم : أسماء الله هى الله[1] .

الباب التاسع

قولهم فى القرآن

أجمعوا أن القرآن كلام الله تعالى ، على الحقيقة ، وأنه ليس بمخلوق ، ولا محدث ولا حدث .

وأنه متلو بألسنتنا ، مكتوب فى مصاحفنا ، محفوظ فى صدورنا ، غير حال فيها كما أن الله تعالى معلوم بقلوبنا ، مذكور بألسنتنا ، معبود فى مساجدنا غير حال فيها .

وأجمعوا أنه ليس بجسم ، ولا جوهر ، ولا عرض .

الباب العاشر

اختلافهم فى الكلام ماهو

واختلفوا فى الكلام ماهو ؟

فقال الأكثرون منهم كلام الله : صفة الله لذاته لم يزل ، وإنه لا يشبه

(١) تناول الغزالى هذا البحث باستقصاء فى كتاب القصد الاسنى لمن أراده والخوض فيه ليس من مسالك السلف .

كلام المخلوقين بوجه من الوجوه ، وليست له مائية كما أن ذاته ليست لها مائية إلا من جهة الإثبات .

وقال بعضهم : كلام الله . أمر ونهى ، وخبر ، ووعد ووعيد ، وقصص وأمثال ، والله تعالى لم يزل آمراً ناهيا ، مخبراً واعداً موعداً ، حامداً ، ذاما ؛ إذا خلقتم وبلغت عقولكم فافعلوا كذا ، وأنتم مذمومون على معاصيكم مثابون على طاعتكم إذا خلقتم ، كما أننا مأمورون مخاطبون بما نزل من القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم ولم نخلق بعد ولم نكن موجودين .

وأجمع الجمهور منهم على أن كلام الله ، تعالى ، ليس بحروف ولا صوت ولا هجاء ، بل الحروف والصوت والهجاء دلالات على الكلام ، وأنها لذوى الآلات والجوارح التى هى : اللهوات[١] والشفاه والألسنة ، والله تعالى ليس بذى جارحة ، ولا محتاج إلى آلة ، فليس كلامه بحروف ولا صوت .

وقال بعض كبرائهم فى الكلام له : من تكلم بالحروف فهو معلول ، ومن كان كلامه باعتقاب[٢] فهو مضطر .

وقالت طائفة منهم : كلام الله حروف وصوت ، وزعموا أنه لا يعرف كلامه إلا كذلك مع إقرارهم أنه صفة الله ، تعالى ، فى ذاته غير مخلوق ، وهذا قول حارث المحاسبى ، ومن المتأخرين ابن سالم .

والأصل فى هذا : أنه لما ثبت أن الله ، تعالى ، قديم ، وأنه غير مشبه للخلق من جميع الوجوه ، كذلك صفاته : لا تشبه صفات المخلوقين ؛ فلا يكون كلامه حروفا وصوتا ككلام المخلوقين[٣] .

---

(١) جمع لهاة وهى اللحمة المشرفة على الحلق .

(٢) الاعتقاب تعاقب الحروف وتتابعها .

(٣) هذا هو الحق فى هذه الصفة والعجيب ممن يدعى أنه حرف وصوت ويدعى أنه صفة لله سبحانه مع أن المعتزلة يقولون أن الله سبحانه يخلق الكلام فى شجرة ونحوها .

ولما أثبت الله لنفسه كلاما بقوله : (وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً)[1] ، وقوله : (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)[2] ، وقال : (حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ)[3] ، وجب أن يكون موصوفا به فيما لم يزل ، لأنه لو لم يكن موصوفا به فيما لم يزل لكان كلامه كلام المحدثين ولكان فى الأزل موصوفا بضده من سكوت أو آفة .

ولما ثبت أنه غير متغير ، وأن ذاته ليست بمحل للحوادث ، وجب أن لا يكون ساكتا، ثم صار متكلما ، فإذا ثبت كلامه ، وثبت أنه ليس بمحدث وجب الإقرار به ، ولما لم يثبت أنه حروف وصوت وجب الإمساك عنه[4] .

ثم القرآن : يتصرف فى اللغة على وجوه ، منها :

مصدر القراءة ، كما قال الله تعالى : (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ)[5] ، أى قراءته .

والحروف المعجمة فى المصاحف: تسمى قرآنا ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم: « لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو » .

ويسمى كلام الله قرآنا .

فكل قرآن سوى كلام الله: فمحدث مخلوق ، والقرآن الذى هو كلام الله فغير محدث ولا مخلوق .

والقرآن إذا أرسل وأطلق لم يفهم منه غير كلام الله تعالى ، فهو إذاً غير مخلوق ، والوقف فيه لأحد أمرين : إما أن يقف فيه وهو يصفه بصفة الحدث والمخلوق فهو عنده مخلوق ، ووقوفه تقية ، أو يقف وهو منطو على

---

(١) سورة النساء آية ٣ - ١٦٢ (٢) سورة النحل آية ١٦ - ٤٢ .
(٣) سورة التوبة آية ٩ - ٢٦ (٤) كلام مسدد .
(٥) سورة القيامة آية ٧٥ - ١٨ .

أنه صفة لله فى ذاته ، فلا معنى لوقوفه عن عبارة الخلق والنطق به ، اللهم إلا أن ينطوى على أنه صفة لله ، وصفات الله غير مخلوقة ، ولم يمتحن بناف يجب عليه إثباته ، فيقول : القرآن كلام الله ، ويسكت : إذ لم يأت بغير مخلوق رواية ولا تليت به آية ، فهو عند ذلك مصيب .

الباب الحادى عشر

قولهم فى الرؤية

أجمعوا على أن الله تعالى يرى بالأبصار فى الآخرة ، وأنه يراه المؤمنون دون الكافرين ، لأن ذلك كرامة من الله تعالى ، لقوله : (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)(١) .

وجوّزوا الرؤية بالعقل وأوجبوها بالسمع ؛ وإنما جاز فى العقل ، لأنه موجود ، وكل موجود فجائز رؤيته إذا وضع الله تعالى فينا الرؤية له ، ولو لم تكن الرؤية جائزة عليه لكان سؤال موسى عليه السلام : (أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ)(٢) جهلاً وكفراً ، ولما علق الله الرؤية بشريطة استقرار الجبل بقوله : (فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى)(٣) ، وكان ممكنا فى العقل استقراره لو أقرّه الله وجب أن تكون الرؤية المعلقة به جائزة فى العقل ممكنة ، فإذا ثبت جوازه فى العقل ، ثم جاء السمع بوجوبه بقوله : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)(٤) ، وقوله : (كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ)(٥) ، وقوله : (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا

(١) سورة يونس آية ٢٧ .
(٢ ، ٣) سورة الأعراف آية ١٢٧ - ١٢٧ .
(٤) سورة القيامة آيتين ٢٢ ، ٢٣ .
(٥) سورة المطففين آية ١٥ .

الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)[1] ، وجاءت الرواية بأنها الرؤية ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لاتضامون فى رؤيته يوم القيامة »[2] . والأخبار فى هذا مشهورة متواترة وجب القبول به والإيمان والتصديق له وما تأوّلت النافية لها فمستحيل ، كقولهم : (إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) أى إلى ثواب ربها ناظرة ، لأن ثواب الله غير الله ، وقولهم فى : (أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ) : سؤال آية ، فإنه قد أراه آياته ، وقوله : (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) : أنه كما لا تدركه الأبصار فى الدنيا كذا فى الآخرة ، وإنما نفى الله تعالى الإدراك بالأبصار ، لأن الإدراك يوجب كيفية وإحاطة ، فنفى ما يوجب الكيفية والإحاطة دون الرؤية التى ليست فيها كيفية وإحاطة[3] .

وأجمعوا أنه لايرى فى الدنيا بالأبصار ولا بالقلوب إلا من جهة الأيقان ، لأنه غاية الكرامة وأفضل النعم، ولا يجوز أن يكون ذلك إلا فى أفضل المكان، ولو أعطوا فى الدنيا أفضل النعم لم يكن بين الدنيا الفانية والجنة الباقية فرق ، ولما منع الله سبحانه كليمه موسى ، عليه السلام ، ذلك فى الدنيا ، وكان من هو دونه أحرى .

وأخرى أن الدنيا دار فناء ، ولا يجوز أن يرى الباقى فى الدار الفانية ، ولو رأوه فى الدنيا لكان الإيمان به ضرورة .

والجملة أن الله تعالى أخبر أنها تكون فى الآخرة ، ولم يخبر أنها تكون فى الدنيا فوجب الانتهاء إلى ما أخبر الله تعالى به .

---

(١) سورة يونس آية ١٠ : ٢٧ .

(٢) من حديث صحيح أخرجه أحمد والشيخان وسائر الجماعة .

(٣) هذه القضية فى شأن رؤية الله سبحانه وتعالى فى الآخرة بأدلتها قد ساقها علماء الكلام على الوجه الذى ذكره المؤلف فى الدعوى والاستدلال والمناقشة فليرجع إليها من شاء فى كتب العقائد . والمصنف هنا قد ساقها فى أسلوبه الهادى المتين وأضاف إليها فيما يبدو قصة الرؤية فى الدنيا وهو حق واضح .

الباب الثانى عشر

اختلاف قولهم فى رؤية النبى عليه السلام

واختلفوا فى النبى صلى الله عليه وسلم . هل رأى ربه ليلة المسرى ؟

فقال الجمهور منهم والكبار : إنه لم يره محمد صلى الله عليه وسلم ببصره ، ولا أحد من الخلائق فى الدنيا ، على ما روى عن عائشة أنها قالت : من زعم أن محمداً رأى ربه فقد كذب . منهم . الجنيد ، والنورى ، وأبو سعيد الخراز .

وقال بعضهم : رآه النبى صلى الله عليه وسلم ليلة المسرى ، وإنه خُصّ من بين الخلائق بالرؤية كما خص موسى عليه السلام بالكلام ، واحتجوا بخبر ابن عباس وأسماء وأنس ، منهم أبو عبد الله القرشى والشبلى وبعض المتأخرين .

وقال بعضهم : رآه بقلبه ولم يره ببصره واستدلّ بقوله : (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى)[1] .

ولا نعلم أحـــداً من مشايخ هذه العصبة المعروفين منهم والمتحققين به ، ولم نر فى كتبهم ولا مصنفاتهم ، ولا رسائلهم ولا فى الحكايات الصحيحة عنهم ، ولا سمعنا ممن أدركنا منهم زعم أن الله تعالى يرى فى الدنيا أو رآه أحد من الخلق ، إلا طائفة لم يعرفوا بأعيانهم .

بل زعم بعض الناس أن قوما من الصوفية ادّعوها لأنفسهم ، وقد أطبق المشايخ كلهم على تضليـــل من قال ذلك وتكذيب ادعاه ، وصنفوا فى ذلك كتبا ؛ منهم أبو سعيد الخراز ، وللجنيد فى تكذيب من ادعاه وتضليله رسائل وكلام كثير .

---

(١) سورة النجم آية ١١ .

وزعموا أن من ادّعى ذلك لم يعرف الله عز وجل، وهذه كتبهم تشهد على ذلك[1] .

الباب الثالث عشر

قولهم فى القدر وخلق الأفعال

أجمعوا أن الله تعالى، خالق لأفعال العباد كلها، كما أنه خالق لأعيانهم، وأن كل ما يفعلونه من خير وشرّ فبقضاء الله وقدره وإرادته ومشيئته، ولولا ذلك لم يكونوا عبيداً ولا مربوبين ولا مخلوقين، وقال جل وعز: (قُلِ اللهُ خَالِقُ كلِّ شَيْءٍ)[2] . وقال: (إنَّا كُلَّ شيْءٍ خلقْناهُ بِقدَرٍ، وكُلُّ شيْءٍ فَعلُوهُ فِي الزُّبُرِ)[3] .

فلما كانت أفعالهم أشياء، وجب أن يكون الله خالقها، ولو كانت الأفعال غير مخلوقة لكان الله جل وعز خالق بعض الأشياء دون جميعها، ولكان قوله: (خَالِقُ كُلِّ شيْءٍ) كذبا، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ومعلوم أن الأفعال أكثر من الأعيان، فلو كان الله خالق الأعيان، والعباد خالقى الأفعال، لكان الخلق أولى بصفة المدح فى الخلق من الله تعالى، ولكان خلق العباد أكثر من خلق الله، ولو كانوا كذلك لكانوا أتمّ قدرة من الله تعالى، وأكثر خلقاً منه، وقد قال الله تعالى: (أَمْ جَعَلُوا لِلهِ شرَكاءَ خَلَقُوا كَخلْقِهِ فَتَشابَهَ الخلْقُ عَلَيْهِمْ، قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القهّار)[4]، فنفى أن يكون خالقا غيرُه،

(١) هذا كلام المحققين الراسخين وهو مما يدل على أن فى التصوف خلطاً لا يليق وأن المؤلف ممن بعدوا بتحقيقهم ودقتهم عن الخوض فى ذلك الخلط .

(٢) سورة الرعد آية ١٦ (٣) سورة القمر آية ٤٩ - ٥٢ .

(٤) سورة الرعد آية ١٦ .

وقال الله تعالى : (وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ)(١) . فأخبر أنه قدر سير العباد وقال : (وَاللهُ خلقكم وَما تَعمَلُونَ)(٢) . وقال : (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)(٣) . فدل أن مما خلق شراً ، وقال: (ولا تُطِعْ مَنْ أغفلنا قلبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا)(٤) . أى خلقنا الغفلة فيه ، وقال : (وَأَسِرُّوا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ، ألَا يعلم مَنْ خَلَقَ)(٥) . فأخبر أن قولهم ، وسرهم وجهرهم : خلق له .

وقال عمر رضى الله عنه : يا رسول الله ، أرأيت ما نعمل فيه ، أعلى أمر قد فرغ منه ، أو أمر مبتدأ ؟ فقال : « على أمر قد فرغ منه » .

فقال عمر : أفلا نتكل وندع العمل ؟

فقال : « اعملوا فكل ميسر لما خُلق له » .

---

(١) سورة سبأ ٣٤ : ١٨ تقدير الله سبحانه متعلق بكل شىء والأدلة عليه واضحة ولكن لغة الآية فيما يبدو ليست مما نحن فيه بحال إذا الكلام فى منة الله سبحانه على سبأ بمساكنهم التى كانت زاخرة بالحياة وما كان لهم من اليسر فى الرحلات والتقلب بين بلاد اليمن إلى بلاد الشام فقد كانت بها قرى ظاهرة يعرفها المسافرون ، وكان السير فيها بمقدار يريح المسافر فهو يبيت فى قرية ويغدو فى ثانية ويروح فى ثالثة فلا يحس بوعثاء السفر وشدته فتقرير السير أمر يرجع إلى تيسير السفر وسهولته كما يدل على ذلك السياق فى مجموع الآيات ولقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ـ إلى أن يقول وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم ، والمؤلف رحمه الله أراد أن يحشد ما يتسنى له من الآيات فى هذا المقام وشكر الله له والمقام لا يستدعى هذه الآية كما رأيت .

(٢) سورة الصافات آية ٣٧ - ٤٩ (٣) سورة الفلق آية ١١٣ - ٢ .

(٤) سورة الكهف آية ١٨ - ٢٨ (٥) سورة الملك آية ٦٧ - ١٣ ، ١٤ .

وسئل النبى صلى الله عليه وسلم : أرأيت رقى نسترقيها ، ودواء نتداوى به ، هل يرد من قدر الله ؟

قال : « إنه من قدر الله »[1] .

وقال : « والله لايؤمن أحد حتى يؤمن بالله وبالقدر ، خيره وشره من الله » .

ولما جاز أن يخلق الله تعالى ، العين ، الذى هو شر ، جاز أن يخلق الفعل الذى هو شر .

وجمع على أن حركة المرتعش خلق الله ، فكذلك حركة غيره ، غير أن الله تعالى خلق لهذا حركة واختياراً ، وخلق للآخر حركة ولم يخلق له اختياراً .

قال أبو بكر الواسطى ، فى قوله تعالى : (وله ماسكن فى الليل والنهار)[2] .

قال : من ادعى شيئاً من ملكه وهو ماسكن فى الليل والنهار من خطرة وحركة أنها له أو به أو إليه أو منه ، فقد جاذب القبضة ، وأوهن العزة .

وفى قوله تعالى : (ألا له الخلق والأمر)[3] خلق إيجاد وأمر إطلاق ، ما لم يأمر الجوارح أمر إطلاق لم توافقه فى شىء ، كذلك المخالفة .

الباب الرابع عشر

قولهم فى الاستطاعة

أجمعوا أنهم لايتنفسون نفساً ، ولايطرفون طرفة ، ولا يتحركون

(١) أورده أبو طالب المكى فى قوت القلوب ج ٢ ص ٤٠ . ولم أجده بهذا اللفظ بعد البحث عنه ومعناه صحيح واضح ثم رأيته فى كتاب الاعتقاد للإمام البيهقى بسنده ثم قال ويشهد له بالصحة قوله : كل ميسر لما خلق له راجع كتاب الاعتقاد للبيهقى ص ٥٩ طبع سنة ١٣٨٠هـ .

(٢) الأنعام آية ١٣ . (٣) الأعراف آية ٥٢ .

حركة ، إلا بقوة يحدثها الله تعالى ، فيهم ، واستطاعة يخلقها الله لهم ، مع أفعالهم ، لا يتقدمها ولا يتأخر عنها ، ولا يوجد الفعل إلا بها ، ولولا ذلك لكانوا بصفة الله تعالى ، يفعلون ما شاءوا ، ويحكمون ما أرادوا ، ولم يكن الله القوى القدير بقوله : (ويفعل الله ما يشاء)[١] ، أولى من عبد حقير ضعيف فقير .

ولو كانت الاستطاعة هى الأعضاء السليمة لاستوى فى الفعل كل ذى أعضاء سليمة ، فلما رأينا ذوى أعضاء سليمة ، ولم نر أفعالهم ، ثبت أن الاستطاعة : مايرد من القوة على الأعضاء السليمة ، وتلك القوة متفاضلة فى الزيادة والنقصان ، ووقت دون وقت ، وهذا يشاهده كل من نفسه .

ثم لما كانت القوة عرضا ، والعرض لا يبقى بنفسه ولا ببقاء فيه ، لأن ما لا يقوم بنفسه ولا يقوم به غيره . لا يبقى ببقاء فى غيره ، لأن بقاء غيره ليس ببقاء له ، بطل أن يكون له بقاء ، وإذا كان كذلك وجب أن تكون قوة كل فعل غير قوة غيره .

ولولا ذلك لم تكن للخلق حاجة إلى الله تعالى ، عند أفعالهم ، ولا كانوا فقراء إليه ، ولكان قوله تعالى : (وإياك نستعين)[٢] . لا معنى له .

ولو كانت القوة قبل الفعل ، وهى لا تبقى لوقت الفعل ، لكان الفعل بقوة معدومة ، ولو كانت كذلك ، لكان وجود الفعل من غير قوة ، وفى ذلك إبطال الربوبية والعبودية جميعاً ، لأنه لو كان كذلك لكان يجوز وقوع فعل من غير ذى قوى ، ولو جاز ذلك لجاز أن يكون وجودها بأنفسها من غير فاعل ، وقد قال الله تعالى فى قصة موسى والعبد الصالح : (إنك لن تستطيع معى صبراً)[٣] ، وقوله : (ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً)[٤] ، يريد لا تقوى عليه .

(١) سورة إبراهيم الآية ٢٧ . (٢) سورة الفاتحة الآيات ١ - ٤ .
(٣) سورة الكهف الآية ٦٦ . (٤) سورة الكهف الآية ٨١ .

وأجمعوا أن لهم أفعالا واكتسابا على الحقيقة ، هم بها مثابون ، وعليها معاقبون ، ولذلك جاء الأمر والنهى ، وعليه ورد الوعد والوعيد .

ومعنى الاكتساب : أن يفعل بقوة محدثة .

وقال بعضهم : معنى الاكتساب : أن يفعل لجر منفعة أو دفع مضرة ، لقوله تعالى : (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت)(١).

وأجمعوا أنهم مختارون لاكتسابهم مريدون له ، وليسوا بمحمولين عليه ، ولامجبرين فيه ، ولا مستكرهين له .

ومعنى قولنا : مختارون : أن الله تعالى ، خلق لنا اختياراً فانتفى الإكراه فيها ، وليس ذلك على التفويض .

قال الحسن بن على رضى الله عنهما . إن الله تعالى ، لايطاع بإكراه ، ولايعصى بغلبة ، ولم يهمل العباد من المملكة .

وقال سهل بن عبد الله : إن الله تعالى ، لم يقو الأبرار بالجبر ، إنما قواهم باليقين .

وقال بعض الكبراء : من لم يؤمن بالقدر فقد كفر ، ومن أحال المعاصى على الله فقد فجر .

---

(١) البقرة ٢٨٦ ويستدل بالآية على أن المرء مثاب على الخير وهو ما يسمى كسبا ولذلك عبر عنه بقوله سبحانه وعلى أن العبد معاقب على آثامه فهى عليه لا له وهذا هو المعبر عنه فى الآية بالاكتساب ولذلك عبر عنه بقوله وعليها خلافا لمسلك المؤلف الذى عبر عن الكل بالاكتساب وهى مسألة تغطية ولكن لابد من سر لهذا الإطناب وذلك العطف بين الجملتين .

الباب الخامس عشر

قولهم في الجبر

وأحال بعضهم الجبر، وقال : لا يكون الجبر إلا بين الممتنعين ، وهو أن يأمر الآمر ويمتنع المأمور ، فيجبره الآمر عليه ، ومعنى الإجبار : أن يستكره الفاعل على إتيان فعل هو له كاره ولغيره مؤثر ، فيختار المجبر إتيان ما يكرهه ويترك الذى يحبه ، ولولا إكراهه له وإجباره إياه لفعل المتروك وترك المفعول ولم يجد هذه الصفة فى اكتسابهم الإيمان والكفر ، والطاعة والمعصية ، بل اختار المؤمن الإيمان وأحبه واستحسنه ، وأراده وآثره على ضده ، وكره الكفر وأبغضه واستقبحه ولم يرده وآثر عليه ضده[1] .

والله خلق له الاختيار والاستحسان والإرادة للإيمان ، والبغض والكراهة والاستقباح للكفر ، قال الله تعالى : (حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان)[2] .

واختار الكافر الكفر واستحسنه ، وأحبه وأراده وآثره على ضده ، وكره الإيمان وأبغضه واستقبحه ولم يرده وآثر عليه ضده .

والله تعالى خلق ذلك كله ، قال الله عز وجل : (كذلك زينا لكل أمة عملهم)[3] ، وقال : (ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجا)[4] .

وليس أحدهما بممنوع عن ضد ما اختاره ، ولا بمحمول على ما اكتسبه ،

---

(١) تأمل فى التصوير الهادىء الرزين الحكيم .

(٢) سورة الحجرات آية ٧ (٣) سورة الأنعام آية ١٠٧ .

(٤) سورة الأنعام آية ١٢٥ .

ولذلك وجبت حجة الله عليهم ، وحق عليهم القول من ربهم ، ومأوى الكافرين النار بما كانوا يكسبون : (وما ظلمناهم ولكن هم الظالمين)[١] ، ويفعل الله ما يشاء (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون)[٢] .

قال ابن الفرغانى : ما من خطرة ولا حركة إلا بالأمر ، وهو قوله : كن ، فله الخلق بالأمر ، وله الأمر بالخلق[٣] ، والخلق صفته ، فلم يدع بهذين الحرفين لعاقل يدعى شيئا من الدنيا والآخرة ، لا له ، ولا به ، ولا إليه ، فاعلم أنه لا إله إلا الله .

الباب السادس عشر

قولهم فى الأصلح

أجمعوا على أن الله تعالى ، يفعل بعباده ما يشاء ويحكم فيهم بما يريد ، كان ذلك أصلح لهم أو لم يكن ، لأن الخلق خلقه والأمر أمره (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون)[٤] .

ولولا ذلك لم يكن بين العبد والرب فرق ، وقال الله تعالى : (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثما)[٥] .

---

(١) سورة الزخرف آية .　　(٢) سورة الأنبياء آية ٢٦ .

(٣) الخلق بالأمر هو الخلق بكلمة كن وهى أمر والأمر بالخلق أى أنه يأمر العباد لأنه خالقهم كأنه كذلك ولا يخلو من تكلف لولا المحسن اللفظى ويحتمل أن معنى الأمر بالخلق أنه تعالى يتصرف فى العباد لأنه خالقهم فالأمر أيضاً تكوين .

(٤) سورة الأنبياء آية ٢٣ .

(٥) سورة آل عمران آية ١٧٢ .

وقال : (إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون)[1] ، وقال : « أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم »[2] .

والقول بالأصلح يوجب نهاية القدرة وتنفيذ ما فى الخزائن[3] ، وتعجيز الله تعالى عن ذلك ، لأنه إذا فعل بهم غاية الصلاح فليس وراء الغاية شىء ، فلو أراد أن يزيدهم على ذلك الصلاح صلاحا آخر لم يقدر عليه ، ولم يجد بعد الذى أعطاهم ما يعطيهم : مما يصلح لهم ، تعالى الله عن ذلك علوّا كبيراً .

وأجمعوا : أن جميع ما فعل الله بعباده من الإحسان والصحة والسلامة والإيمان والهداية واللطف : تفضل منه ، ولو لم يفعل ذلك لكان جائزا وليس على الله بواجب ، ولو كان ما يفعل مما يفعل شيئاً واجبا عليه لم يكن مستحقا للحمد والشكر .

وأجمعوا : أن الثواب والعقاب ليس من جهة الاستحقاق ، لكنه من جهة المشيئة[4] والفضل والعدل ، لأنهم لا يستحقون على أجرام منقطعة عقابا دائما ، ولا على أفعال معدودة ثوابا دائما غير معدود .

وأجمعوا : أنه لو عذّب جميع من فى السموات ومن فى الأرض لم يكن ظالما لهم ، ولو أدخل جميع الكافرين الجنة لم يكن ذلك محالا ، لأن الخلق خلقه والأمر أمره ، ولكنه أخبر أنه ينعم على المؤمنين أبداً ويعذب الكافرين أبداً ، وهو صادق فى قوله ، وخبرُه صدق ، فوجب أن يفعل بهم ذلك ولا يجوز غيره ، لأنه لا يكذب فى ذلك ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً .

---

(١) سورة التوبة الآية ٥٥ . (٢) سورة المائدة الآية ٤١ .

(٣) يوجب نهاية القدرة أى غاية ما فى الوسع وتنفيذ ما فى الخزائن استنفاده وانتهاؤه وقوله عن ذلك لعلها عن ما وراء ذلك كما يقتضيه السياق .

(٤) المقصود بالمشيئة الاختيار الذى يقابل الإلزام .

وأجمعوا : أنه لايفعل الأشياء لعلة ، ولوكان لها علة لكان للعلة علة ، إلى مالا يتناهى ، وذلك باطل ، قال الله تعالى : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون)(١) ، وقال : (هو اجتباكم)(٢) ، وقال : (وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين)(٣) ، وقال : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس)(٤) .

ولا يكون شيء منه ظلما ولا جوراً ، لأن الظلم إنما صار ظلما لأنه منهى عنه ، ولأنه وضع الشيء فى غير موضعه ؛ والجور إنما كان جوراً لأنه عدل عن الطريق الذى بين له ، والمثال الذى مثل له من فوقه ومن هو تحت قدرته ، ولما لم يكن الله تحت قدرة قادر ولا كان فوقه آمر ولا زاجر ، لم يكن فيما يفعله ظالما ، ولا فى شيء يحكم به جائراً ، ولم يقبح منه شيء ، لأن القبيح ما قبحه ، والحسن ما حسنه .

وقال بعضهم : القبيح ما نهى عنه ، والحسن ما أمر به .

وقال محمد بن موسى : إنما حسنت المستحسنات بتجليه ، وقبحت المستقبحات باستتاره ، وإنما هما نعتان يجريان على الأبد بما جريا فى الأزل ، ومعناه : كل ماردك إلى الحق من الأشياء فهو حسن ، وما ردك إلى شيء دونه فهو قبيح ، فالقبيح والحسن ما حسنه الله فى الأزل وما قبحه .

ومعنى آخر : أن المستحسن هو : ما تخلى عن ستر النهى ، فلم يكن بين العبد وبينه ستر ، والقبيح : ما كان وراء الستر ، وهو النهى على معنى قوله

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠١ .　　(٢) سورة الحج الآية ٧٨ .
(٣) سورة هود الآية ١١٩ .
(٤) سورة الأعراف الآية ٧٩ ومدلول الآيات أنه سبحانه يفعل مايشاء من الثواب والعقاب على ماستقضى به كلمته واقتضت حكمته لا لعلة .

عليه السلام : « وعلى الأبواب ستور مرخاة » قيل الأبواب المفتحة « محارم الله » والستور حدوده .

الباب السابع عشر

قولهم فى الوعد والوعيد

أجمعوا : أن الوعيد المطلق فى الكفار والمنافقين .

والوعد المطلق فى المؤمنين والمحسنين .

وأوجب بعضهم غفران الصغائر باجتناب الكبائر بقوله : (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه)[1] الآية، وجعلها بعضهم كالكبائر فى جواز العقوبة عليها، لقوله تعالى : (إن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله)[2] الآية .

وقالوا : معنى قوله : (وإن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه) هو الشرك والكفر وهو أنواع كثيرة ، فجاز أن يطلق عليها اسم الجمع ، وفيه وجه آخر ، وهو أن الخطاب خرج على الجمع ، فكانت كبيرة كل واحد منهم عند الجمع كبائر[3] .

---

(١) سورة النساء (٣١) وتمام الآية « نكفر عن سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً » ومراده ، أن هناك إيجابا بهذا الوعد الكريم كما سبق له مثـــل ذلك فإنه لاواجب إلا من هذا القبيل .

(٢) سورة البقرة ٢٨٤ تمامها فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والواقع أنه لامنافاة بين هذا وبين ماقبله فإن الجواز عقلى والغفران حق لله عز وجل ولكنه ثبت بالوعد الكريم .

(٣) هذا الجواب عجيب جداً ولاينهض لمقاومة من قالوا إن اجتناب الكبائر يقتضى غفران الصغائر فإنهم إذا ادعوا إن اجتناب الكفر وحده لايقتضى الغفران فكيف لايكون اجتناب الكبائر كلها كذلك وكون غفران الكبائر بالمشيئة والشفاعة قدر لا اختلاف عليه فإن لله مايشاء وترك تنفيذ الوعيد كرم.

وجوّزوا غفران الكبائر بالمشيئة والشفاعة .

وأوجبوا الخروج من النار لأهل الصلاة لا محالة بإيمانهم ، قال الله تعالى : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)[١] ، فجعل المشيئة شرطا فيما دون الشرك .

وجملة قولهم : إنّ المؤمن بين الخوف والرجاء ، يرجو فضل الله فى غفران الكبائر ، ويخاف عدله فى العقوبة على الصغائر ، لأن المغفرة مضمون المشيئة ، ولم يأت مع المشيئة شرط كبيرة ولا صغيرة .

ومن شدد وغلظ فى شرائط التوبة وارتكاب الصغائر فليس ذلك منهم على إيجاب الوعيد ، بل ذلك على تعظيم الذنب فى وجوب حق الله فى الانتهاء عما نهى عنه ، ولم يجعلوا فى الذنوب صغيرة إلا عند نسبة بعضها إلى بعض ، فطالبوا النفوس بإيفاء حق الله تعالى[٢] ، والانتهاء عما نهى الله عنه ، والوفاء بما أمر به الله ورؤية التقصير فى شرائط العمل .

وهم مع ذلك كله أرجى الناس للناس ، وأشدهم خوفا على أنفسهم ، حتى كأن الوعيد لم يرد إلا فيهم ، والوعد لم يكن إلا لغيرهم .

قيل للفضيل عشية عرفة : كيف ترى حال الناس ؟

قال : مغفورون لولا مكانى فيهم .

وقال السرى السقطى : إنى لأنظر فى المرآة كل يوم مراراً مخافة أن يكون قد اسودّ وجهى .

---

(١) سورة النساء ٤٨ والواقع أن التعليق بالمشيئة لا يتفق مع قوله لا محالة ولا يصلح شاهداً له .

(٢) هناك بحث مستوفى فى هذا المقام فى مقدمة كتاب الزواجر لابن حجر الهيتمى ولا مجال لإيراده هنا .

وقال : لا أحبّ أن أموت حيث أُعْرَفُ مخافة أن لا تقبلنى الأرض فأكون فضيحة .

وهم أحسن الناس ظنونا بربهم .

وقال يحيى : من لم يحسن بالله ظنه ، لم تقو بالله عينه

وهم أسوأ الناس ظنونا بأنفسهم ، وأشدهم إزراء بها لا يرونها أهلا لشىء من الخير دينا ولا دنيا .

والجملة أن الله تعالى قال : (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا)[1] الآية أخبر أن المؤمن له عملان : صالح وسيىء ، فالصالح له والسيىء عليه .

وقد وعد الله تعالى على ما له ثوابا ، وأوعد على ما عليه عقابا ، والوعيد حق الله تعالى من العباد ، والوعد حق العباد على الله فيما أوجبه على نفسه ، فإن استوفى منهم حق نفسه ولم يوفهم حقهم ، لم يكن ذلك لائقا بفضله مع غناه عنهم وفقرهم إليه ، بل الأليق بفضله والأحرى بكرمه : أن يوفيهم حقوقهم ، ويزيدهم من فضله ، ويهب منهم حق نفسه ، وبذلك أخبر عن نفسه فقال : (إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تكُ حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما)[2] . وفى قوله : (من لدنه) أنه تفضل وليس بجزاء .

الباب الثالث عشر

قولهم فى الشفاعة[3]

أجمعوا على أن الإقرار بجملة ما ذكر الله تعالى فى كتابه وجاءت به الروايات عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الشفاعة واجب ، لقوله تعالى :

---

(١) سورة التوبة ١٠٢ (٢) سورة النساء ٤٠

(٣) هذا العنوان أقل مما وقع فى البحث الذى تحته فقد تناول موضوعات كثيرة وهى الشفاعة والصراط والميزان ومسائل أخرى عديدة .

(ولسوف يعطيك ربك فترضى)[١] ، (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً)[٢] (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى)[٣] . وقول الكفار : (فما لنا من شافعين)[٤] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى » . وقوله : « واختبأت دعوتى الشفاعة لأمتى »[٥] .

وأقروا بالصراط ، وأنه جسر يمد على جهنم ، وقرأت عائشة رضى الله عنها : (يوم تبدل الأرض غير الأرض)[٦] . قالت : فأين الناس حينئذ يا رسول الله ؟ فقال : « على الصراط »[٧] .

وأقروا بالميزان ، وأن أعمال العباد توزن ، كما قال الله تعالى : (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه)[٨] ، وإن لم يعلموا كيفية ذلك ، وقولهم فى هذا وأمثاله ، مما لا يدرك العباد كيفيته :

آمنا بما قال الله على ما أراد الله ، وآمنا بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما أراد رسول الله .

وأقروا : أن الله تعالى يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان[٩] على ما جاء فى الحديث .

---

(١) سورة الضحى ٥ . (٢) سورة الإسراء ٧٩ .
(٣) سورة الأنبياء ٢٨ . (٤) سورة الشعراء ١٠٠ .
(٥) أخرجه أحمد وأبو داود والنسائى وابن حبان فى صحيحه .
(٦) سورة إبراهيم ٤٨ .
(٧) أخرجه مسلم والترمذى .
(٨) سورة الأعراف ٩ .
(٩) رواه البخارى بسنده إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال :
يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يقول الله تعالى : أخرجوا من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان .

وأقروا بتأبيد الجنة والنار ، وأنهما مخلوقتان ، وأنهما باقيتان أبد الآبد لاتفنيان ولا تبيدان وكذلك أهلوهما باقون فيهما ، خالدون مخلدون ، منعمون ومعذبون ، لاينفد نعيمهم ، ولاينقطع عذابهم .

وشهدوا لعامة المؤمنين بالإيمان فى ظاهر أمورهم ، ووكلوا سرائرهم إلى الله تعالى .

وأقروا أن الدار دار إيمان وإسلام ، وأن أهلها مؤمنون مسلمون .

وأهل الكبائر عندهم مسلمون ، مؤمنون بما معهم من الإيمان ، فاسقون بما فيهم من الفسق .

ورأوا الصلاة خلف كل برّ وفاجر .

ورأوا الصلاة على كل من مات من أهل القبلة .

ورأوا الجمعة والجماعات والأعياد واجبة على من لم يكن له عذر من المسلمين مع كل إمام برّ أو فاجر .

وكذلك الجهاد معهم والحج .

وأروا الخلافة حقاً ، وأنها فى قريش .

وأجمعوا على تقديم أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم .

ورأوا الاقتداء بالصحابة والسلف الصالح ، وسكتوا على القول فيما كان بينهم من التشاجر ، ولم يروا ذلك قادحاً فيما سبق لهم من الله عز وجل من الحسنى .

وأقروا أن من شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ؛ فهو فى الجنة وأنهم لايعذبون بالنار .

ولايرون الخروج على الولاة بالسيف وإن كانوا ظلمة[1] .

---

(١) الحق أن طاعة ولى الأمر واجبة مالم يأمر بمعصية روى الشيخان عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولاطاعة =

ويرون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجباً لمن أمكنه بما أمكنه مع شفقة وزأفة ، ورفق ورحمة ، ولطف ولين من القول .

ويؤمنون بعذاب القبر ، وبسؤال منكر ونكير .

وأقروا بمعراج النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه عرج به إلى السماء السابعة ، وإلى ماشاء الله ، في ليلة ، في اليقظة ، ببدنه .

ويصدّقون بالرؤيا ، وأنها بشارة المؤمنين وإنذار لهم وتوقيف .

وعندهم أن من مات أو قتل فبأجله ، ولايقولون إلا باحترام الآجال ، وأنه إذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

الباب التاسع عشر

قولهم في الأطفال

وأقروا : أن أطفال المؤمنين مع آبائهم في الجنة .

واختلفوا في أطفال المشركين ، فمنهم من قال : لايعذب الله بالنار

= وروى البخاري عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اسمعوا وأطيعوا وإن تأمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة .

وفي حديث طويل رواه مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وقد سأله رجل عن الأمراء الذين يأخذون حقوقهم ويمنعون حقوق الناس وكرر السؤال فقال له النبي صلى الله عليه وسلم اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ماحملوا وعليكم ماحملتم والأحاديث في هذا المعنى متعددة فلا يجوز الخروج على الإمام ولا قتاله بالسلاح ولو ظلم . وإلا اضطرب حبل الأمن وكانت فتنة والواجب سد الذرائع وإغلاق أبواب الشرور كما فعل الصحابة والتابعون مع الخلفاء بعد الأربعة الراشدين ومع ولاتهم الجائرين كالحجاج وغيره .

إلا بعد لزوم الحجة على من عاند وكفر ووجبت عليه الأحكام وأرجأ الأكثرون أمرهم إلى الله تعالى ، وجوّزوا تعذيبهم وتنعيمهم[١] .

وأجمعوا على أن المسح على الخفين حق[٢] .

وجوّزوا أن يرزق الله الحرام .

وأنكروا الجدال والمراء فى الدين ، والخصومة فى القدر والتنازع فيه[٣] .

ورأوا التشاغل بما لهم وعليهم أولى من الخصومات فى الدين .

ورأوا طلب العلم أفضل الأعمال ، وهو علم الوقت بما يجب عليهم ظاهراً وباطنا .

وهم : أشفق الناس على خلق الله ، من فصيح وأعجم ، وأبذل الناس بما فى أيديهم ، وأزهدهم عما فى أيدى الناس، وأشدهم إعراضا عن الدنيا ، وأكثرهم طلبا للسنة والآثار ، وأحرصهم على اتباعها[٤] .

الباب العشرون

فيما كلف الله البالغين

اجمعوا : أن جميع ما فرض الله تعالى على العباد فى كتابه وأوجبه

(١) هذا الرأى يتأيد بما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن أطفال المشركين فقال الله إذ خلقهم أعلم بما كانوا عاملين .

(٢) المسح على الخفين ثابت بالسنة ورويت فيه أحاديث قيل إنها بلغت حد التواتر وهو من الرخص التى تبرهن على سماحة الإسلام وسعته لشئون الناس فى فى مختلف أحوالهم .

(٣) ورد فى النهى عن الجدل والمراء أحاديث فى الترغيب من تركه والترهيب منه ولاسيما فى القدر فإنه مزلة الأقدام ومن حديث الإيمان وأن تؤمن بالقدر كله خيره وشره حلوه ومره .

(٤) [illegible] المعانى فى غاية الاتزان وهى تبين أن سلف القوم كانوا أكثر الناس [illegible] العمل بها .

رسول الله صلى الله عليه وسلم : فرض واجب وحتم لازم على العقلاء البالغين ، لا يجوز التخلف عنه ، ولا يسع التفريط فيه بوجه من الوجوه لأحد من الناس : من صديق وولي وعارف وإن بلغ أعلى المراتب ، وأعلى الدرجات ، وأشرف المقامات ، وأرفع المنازل .

وأنه لا مقام للعبد تسقط معه آداب الشريعة : من إباحة ما حظر الله ، أو تحليل ما حرم الله ، أو تحريم ما أحل الله ، أو سقوط فرض من غير عذر ولا علة ، والعذر والعلة : ما أجمع عليه المسلمون ، وجاءت به أحكام الشريعة.

ومن كان أصفى سراً ، وأعلى رتبة ، وأشرف مقاماً ؛ فإنه أشد اجتهاداً وأخلص عملا ، وأكثر توقياً(١) .

وأجمعوا أن الأفعال ليست بسبب للسعادة والشقاوة ، وأن السعادة والشقاوة سابقتان بمشيئة الله تعالى لهم ذلك وكتابه عليهم ، كما جاء في الحديث :

قال عبد الله بن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا كتاب من رب العالمين ، فيه أسماء أهل الجنة ، وأسماء آبائهم وقبائلهم » ، ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً ، وكذلك قال في أهل النار .

---

(١) هذه الفقرة يرد بها على قوم من ملاحدة المتصوفة يدعون أن من المقامات ما إذا وصل إليه العابد سقط عنه التكليف ولا أحد أعظم مقاما من النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الأكرمين ومنهم في زماننا من يترك الصلاة جهرة . ومنهم من يستبيح شرب الخمر وغيرها من المحرمات وهذا هوس تباح به دماؤهم إذا ثبت ذلك عليهم لأن تحليل ما حرم الله ردة عن الإسلام وكفر به . كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا . ومن أراد معرفة التصوف على حقيقته فليرجع إلى ما كتب الأئمة السابقون وما نقل عنهم المتأخرون من أمثال الشعراني في أول كتابه الطبقات الكبرى وفي خلال تراجمه لهم .

وقال عليه السلام : « السعيد من سعد فى بطن أمه والشقى من شقى فى بطن أمه » .

وأجمعوا : أنها[1] ليست بموجبة للثواب والعقاب من حيث الاستحقاق بل من جهة الفضل ، ومن جهة إيجاب الله تعالى ذلك .

وأجمعوا : أن نعيم الجنة لمن سبق له من الله السعادة من غير علة ، وأن عذاب النار لمن سبق له من الله الشقاوة من غير علة ، كما قال : وهؤلاء « فى الجنة ولا أبالى ، وهؤلاء فى النار ولا أبالى » .

وقال : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس)[2] .

وقال : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون)[3] .

وقالوا : إنها ، أعنى أفعال العباد، علامات وأمارات على ما سبق لهم من الله، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « عملوا فكل ميسر لما خلق له » .

وقال الجنيد : الطاعة عاجل بشراه على ما سبق لهم من الله تعالى ، وكذلك المعصية .

وقال غيره : العبادات ، حلية الظواهر ، والحق لا يبيح تعطيل الجوارح من حلاها .

وقال محمد بن على الكتانى : الأعمال كسوة العبودية فمن أبعده الله عند القسمة نزعها ، ومن قربه أشفق عليها ولزمها .

وهم مع ذلك مجمعون على أن الله تعالى يثيب عليها ويعاقب ، لأنه وعد على صالحها وأوعد على سيئها . فهو ينجز وعده ويحقق وعيده ، لأنه صادق ، وخبره صدق .

---

(١) أى الأفعال .
(٢) سورة الأعراف : ١٧٨
(٣) الأنبياء ١٠١

وقالوا : على العبد بذل المجهود فى أداء ما كلف به وإتيان ماندب إليه بعد التكليف وبعد إتيانها وإيفاء ما عليه تكون المشاهدات ، كما جاء فى الحديث : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .

وقال الله تعالى : (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)(١) .

وقال : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى فى سبيله لعلكم تفلحون)(٢) .

وقال يحيى : لن يصل إلى قلبك روح المعرفة وله عليك حق لم تؤده .

وقال الجنيد : إن الله تعالى يعامل عباده فى الآخر على حسب ما عاملهم فى الأول ، بدأهم تكرماً ، وأمرهم ترحماً ، ووعدهم تفضلا ، ويزيدهم تكرما ، فمن شهد برّه القديم سهل عليه أداء أمره ، ومن لزم أمره أدركه وعده ، ومن فاز بوعده لابد أن يزيده من فضله .

وقال سهل بن عبد الله التسترى : من غمض بصره عن الله طرفة عين فلا يهتدى طول عمره .

الباب الحادى والعشرون

قولهم فى معرفة الله تعالى

أجمعوا على أن الدليل على الله هو الله وحده ، وسبيل العقل عندهم سبيل العاقل فى حاجته إلى الدليل ، لأنه محدَث ، والمحدَث لايدل إلا على مثله ، وقال رجل للنورى : ما الدليل على الله ؟

قال : الله .

قال : فما العقل ؟

---

(١) سورة العنكبوت ٦٩ (٢) سورة المائدة ٣٥

قال : العقل عاجز ، والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله .

وقال ابن عطاء : العقل آلة للعبودية لا للإشراف على الربوبية .

وقال غيره : العقل يجول حول الكون ، فإذا نظر إلى المكون ذاب .

وقال أبو بكر القحطبي : من لحقته العقول فهو مقهور إلا من جهة الإثبات[1] ولولا أنه تعرّف إليها بالألطاف لما أدركته من جهة الإثبات .

وأنشدونا لبعض الكبار :

مَنْ رَامَهُ بالعَقْلِ مُسْتَرْشِداً   سَرَّحَهُ فى حَيْرَةٍ يَلْهُو
وشابَ بالتَّلبيسِ أسرارَهُ   يَقولُ مِنْ حَيْرتِهِ هَلْ هُو

وقال بعض الكبار : لا يعرفه إلا من تعرّف إليه ، ولا يوحدُه إلا من توحد له ، ولا يؤمن به إلا من لطف به ، ولا يصفه إلا من تجلى لسرّه ، ولا يخلص له إلا من جذبه إليه ، ولا يصلح له إلا من اصطنعه لنفسه .

معنى من تعرّف إليه ، أى : من تعرّف الله إليه ، ومعنى من توحد له ، أى : أراه أنه واحد .

وقال الجنيد : المعرفة معرفتان ، معرفة تعرّف ، ومعرفة تعريف ، معنى التعرّف : أن يعرّفهم الله عز وجل نفسه ، ويعرّفهم الأشياء به ، كما قال إبراهيم عليه السلام : (لا أحبُّ الآفلين)[2] ، ومعنى التعريف أن يريهم آثار قدرته فى الآفاق والأنفس ، ثم يحدث فيهم لطفاً : تدلهم الأشياء أن لها صانعا ، وهذه معرفة عامة المؤمنين ، والأولى معرفة الخواص ، وكلٌّ لم يعرفه فى الحقيقة إلا به

وهذا كما قال محمد بن واسع : ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله فيه .

---

(١) أى من جهة الإيمان بوجوده عن طريق معرفته بآثار فى خلقه ولا يحيطون به علماً سورة طه ١١٠ .

(٢) سورة الأنعام : ٧٦ .

وقال غيره : ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله .

وقال ابن عطاء : تعرّفَ إلى العامة بخلقه ، لقوله : (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلِقت)[1] الآية . وإلى الخاصة بكلامه وصفاته بقوله : (أفلا يتدبرون القرآن)[2] . وقال : (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين)[3] . (ولله الأسماء الحسنى)[4] . وإلى الأنبياء بنفسه ، كما قال : (وكذلك أوحينا إليك رُوحاً من أمرنا)[5] الآية ، وقال : (أَلَمْ ترَ إلى رَبِّكَ كيفَ مَدَّ الظِّلَّ)[6] الآية ، وقال بعض الكبراء من أهل المعرفة :

لم يَبقَ بيني وبَين الحقِّ تِبيانى ... ولا دَليلٌ ولا آياتُ بُرهانى
هذا تجلّى طلوع الحقِّ نائرةً ... قد أزهرَتْ فى تلاليها بِسلطانِ
لا يَعرفُ الحقَّ إلا مَن يُعرِّفُهُ ... لا يعرفُ القدَمىَّ إلا المحدَثُ الفانى
لا يستدلُّ على البارى بصنعته ... رَأيتم حَدَثاً ينبى عَن أزْمانِ
كانَ الدليلَ لهُ منهُ إليه بهِ ... مَن شاهَدَ الحقَّ فى تنزيلِ فُرْقانِ
كان الدليلَ لهُ منهُ بهِ ولهُ ... حقّاً وَجدناهُ بَلْ علماً بتِبيانِ
هذا وُجودى وتصريحى ومُعتقدى ... هذا تَوَحُّدُ توحيدى وإيمانى
هذا عبارَةُ أهلِ الانفرادِ به ... ذَوى المعارفِ فى سِرٍّ وإعلانِ
هذا وُجودُ وُجودِ الواجدينَ لهُ ... بنى التجانُسِ أصحابى وخُلّانى[7]

(١) سورة الغاشية : ١٧ .
(٢) سورة النساء : ٨٤ .
(٣) سورة الإسراء ٨٢ — (٤) سورة الأعراف : ١٧٩ .
(٥) سورة الشورى : ٥٢ — (٦) سورة الفرقان : ٤٧ .
(٧) تدور معانى هذه الأبيات كلها حول أن البارى سبحانه لا يعرفه أهل الله ذوو الانفراد به ، والتبتل له لا بصفته ولا بمخلوقاته وإنما يعرفونه بتعريفه سبحانه إياهم وهو مسلك يبدو أنه أقوى من مسالك الآخرين ودلت عليه أقوال الصوفية وعباراتهم كقولهم متى غاب حتى يستدل عليه وأمثال ذلك

وقال بعض الكبراء : إن الله تعالى عرفنا نفسه بنفسه ، ودلنا على معرفة نفسه بنفسه ، فقام شاهد المعرفة من المعرفة بعد تعريف المعرف بها .

معناه أن المعرفة لم يكن لها سبب ، غير أن الله تعالى عرف العارف فعرف بتعريفه .

وقال بعض الكبار من المشايخ : البادى من المكونات معروف بنفسه لهجوم العقل عليه ، والحق أعز من أن تهجم العقول عليه ، وأنه عرفنا نفسه أنه ربنا فقال : (ألستُ بربكم)[1] ، ولم يقل : من أنا ؟ فتهجم العقول عليه حين بدا معرفا ، فلذلك انفرد عن العقول وتنزه عن التحصل غير الإثبات .

وأجمعوا أنه لا يعرفه إلا ذو عقل ، لأن العقل آلة للعبد يعرف به ما عرف ، وهو بنفسه لا يعرف الله تعالى .

وقال أبو بكر السباك : لما خلق الله العقل قال له : من أنا ؟ فسكت ، فكحله بنور الوحدانية ، ففتح عينيه ، فقال : أنت الله لا إله إلا أنت .

فلم يكن للعقل أن يعرف الله إلا بالله .

الباب الثانى والعشرون

اختلافهم فى المعرفة نفسها

ثم اختلفوا فى المعرفة نفسها : ما هى ؟ والفرق بينها وبين العلم

فقال الجنيد : المعرفة وجود جهلك عند قيام علمه .

قيل له : زدنا ، قال : هو العارف وهو المعروف

معناه : أنك جاهل به من حيث أنت ، وإنما عرفته من حيث هو .

وهو كما قال سهيل : المعرفة هى المعرفة بالجهل .

(١) الأعراف ١٧٣ وسياق الآية يدل كما قال المفسرون على أن هذا السؤال ألست بربكم كان فى عالم الأرواح قبل خلق الأشباح .

وقال سهل : العلم يثبت بالمعرفة ، والعقل يثبت بالعلم ، وأما المعرفة فإنها تثبت بذاتها .

معناه : أن الله تعالى إذا عرف عبداً نفسه فعرف الله تعالى بتعرفه إليه أحدث له بعد ذلك علما ، فأدرك العلم بالمعرفة ، وقام العقل فيه بالعلم الذى أحدثه فيه .

وقال غيره : تبين الأشياء على الظاهر علم ، وتبينها على استكشاف بواطنها معرفة .

وقال غيره : أباح العلم للعامة ، وخص أولياءه بالمعرفة .

وقال أبو بكر الوراق : المعرفة معرفة الأشياء بصورها وسماتها ، والعلم علم الأشياء بحقائقها[1] .

وقال أبو سعيد الخراز : المعرفة بالله : هى علم الطلب لله من قبل الوجود له ، والعلم بالله هو بعد الوجود ، فالعلم بالله أخفى وأدق من المعرفة بالله .

وقال فارس : المعرفة هى المستوفية فى كنه المعروف .

وقال غيره : المعرفة هى حقر الأقدار إلا قدر الله ، وأن لا يشهد مع قدر الله قدراً[2] .

وقيل لذى النون : بم عرفت ربك ؟ قال : ما هممت بمعصية فذكرت جلال الله إلا استحييت منه .

جعل معرفته بقرب الله منه دلالة المعرفة له .

وقيل لعليان : كيف حالك مع المولى ؟ قال : ما جفوته منذ عرفته .

---

(١) تشعر هذه العبارة أن المعرفة تتصل بما يدرك بالحواس من الجزئيات والعلم متعلق بالمفاهيم الكلية والنظر الفعلى .

(٢) هذه فى الحقيقة هى ثمرة المعرفة التى هى رؤية العارفين بالله سبحانه فإن من عرف الله أجله عن أن يتجه إلى شىء سواه .

قيل له : متى عرفته ؟

قال : منذ سموني مجنونا .

جعل دلالة معرفته له تعظيم قدره عنده .

قال سهل : سبحان من لم يدرك العباد من معرفته إلا عجزاً عن معرفته[١] .

الباب الثالث والعشرون

قولهم فى الروح

قال الجنيد : الروح شىء استأثر الله بعلمه ، ولم يطلع عليه أحداً من خلقه ، ولا يجوز العبارة عنه بأكثر من موجود ، لقوله : (قل الروح من أمر ربى)[٢] .

قال أبو عبد الله النباجى : الروح : جسم يلطف عن الحس ، ويكبر عن اللمس ، ولا يعبر عنه بأكثر من موجود .

قال ابن عطاء : خلق الله الأرواح قبل الأجساد ، لقوله تعالى : (ولقد خلقناكم) ، يعنى الأرواح ، (ثم صورناكم) يعنى الأجساد .

وقال غيره : الروح : لطيف قام فى كثيف ، كالبصر : جوهر لطيف ، قام فى كثيف .

وأجمع الجمهور على أن الروح : معنى يحيى به الجسد[٣] .

وقال بعضهم : هو روح : نسيم طيب يكون به الحياة ، والنفس ريح حارة تكون بها الحركات والسكنات والسهوات .

---

(١) هذا معنى قريب واضح يتصل بقولهم العجز عن الإدراك إدراك .

(٢) هذا تعبير عن مذهب السلف الذين يذهبون إلى أن الخوض فى الروح من الفضول ما دام الشارع لم يبين جوهرها ولا مفهومها وإنما زجرنا عن تعريف كنهها خلافا لما أطال به الكاتبون وما اختلف به المختلفون .

(٣) يبدو أن ذلك هو اتجاه الأطباء من المليين وغيرهم .

وسئل القحطبى عن الروح فقال : لم يدخل تحت ذل كن ، ومعناه عنده أنه ليس إلا الإحياء ، والحى والإحياء صفة المحيى، كالتخلق والخلق صفة الخالق ، واستدل من قال ذلك بظاهر قوله : (قل الروح من أمر ربى) .

قالوا : أمره : كلامه ، وكلامه ليس بمخلوق ، كأنهم قالوا : إنما صار الحى حياً بقوله : كن حياً ، وليس الروح معنى فى الجسد حالا مخلوقاً كالجسد قال الشيخ : وليس هذا بصحيح ، وإنما الصحيح أن الروح معنى فى الجسد مخلوق كالجسد(١) .

الباب الرابع والعشرون

قولهم فى الملائكة والرسل

سكت الجمهور منهم عن تفضيل الرسل على الملائكة وتفضيل الملائكة على الرسل ، وقالوا : الفضل لمن فضله الله ، ليس ذلك بالجوهر ولا بالعمل ، ولم يروا أحد الأمرين أوجب من الآخر ، بخبر ولا عقل .

وفضل بعضهم الرسل وبعضهم الملائكة .

وقال محمد بن الفضل : جملة الملائكة أفضل من جملة المؤمنين وفى المؤمنين من هو أفضل من الملائكة ، كأنه فضل الأنبياء عليهم السلام على الملائكة .

وأجمعوا أن بين الرسل تفاضلا ، لقول الله تعالى : (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض)(٢) . وقوله تعالى:(تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض)(٣) .

---

(١) قد خاض المتكلمون فى هذا الموضوع كثيراً والأسلم والأعدل هو المذهب الأول وهو سلك الأئمة الراشدين وسلف الأمة الصالحين .

وفى أمثال هذه الاختلافات بعض الفصول .

(٢) سورة الإسراء ٥٧

(٣) سورة البقرة ٢٥٤ .

ولم يميزوا الفاضل والمفضول لقوله عليه السلام : « لا تخيروا بين الأنبياء »(١).

وأوجبوا فضل محمد صلى الله عليه وسلم بالخبر . وهو قوله عليه السلام : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر ، آدم ومن دونه تحت لوائى »(٢) . وسائر الأخبار التى جاءت ، وقول الله جل وعز (كنتم خير أمة أخرجت للناس)(٣) ، فلما كانت أمته خير الأمم وجب أن يكون نبيه خير الأنبياء ، وسائر ما فى القرآن من الدلائل على فضله .

وأجمعوا جميعا أن الأنبياء أفضل البشر ، وليس فى البشر من يوازى الأنبياء فى الفضل ، لا صديق ، ولا ولى ، ولا غيرهم ، وإن جل قدره ، وعظم خطره .

قال النبى صلى الله عليه وسلم لعلى رضى الله عنه : « هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين »(٤) . يعنى أبا بكر وعمر ، فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم أنهما خير الناس بعد النبيين .

قال أبو يزيد البسطامى : آخر نهايات الصديقين أول أحوال الأنبياء ، وليس لنهاية الأنبياء غاية تدرك .

وقال سهيل بن عبد الله : انتهت هم العارفين إلى الحجب ، فوقفت مطرقة فأذن لها ، فسلمت فخلع عليها خلع التأييد ، وكتب لها براءة من الزيغ ، وهم الأنبياء جالت حول العرش ، فكسيت الأنوار ، ورفعت منها الأقدار ، واتصلت بالجبار ، فأفنى حظوظها ، وأسقط مرادها ، وجعلها متصرفة به له .

(١) رواه الشيخان وأبو داود .

(٢) معنى حديث طويل أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب ولفظه : أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا وأنا خطيبهم إذا وفدوا وأنا مبشرهم إذا أيسوا ولواء الحمد يومئذ بيدى وأنا أكرم ولد آدم على ربى ولا فخر .

(٣) آل عمران ١١٠ .

(٤) أخرجه الترمذى وقال حسن غريب من هذا الوجه .

وقال أبو يزيد : لو بدا للخلق من النبي ذرة لم يقم لها ما دون العرش .

وقال : ما مثل معرفة الخلق وعلمهم بالنبي إلا مثل نداوة تخرج من رأس الزق المربوط[1] .

قال بعضهم : لم ينل أحد من الأنبياء الكمال في التسليم والتفويض غير الحبيب والخليل صلى الله عليهما ، فلذلك أيس الكبراء عن الكمال وإن كانوا في حال القربة مع تحقيق المشاهدة .

قال أبو العباس بن عطاء : أدنى منازل المرسلين أعلى مراتب النبيين ، وأدنى منازل الأنبياء أعلى مراتب الصديقين ، وأدنى منازل الصديقين أعلى مراتب الشهداء ، وأدنى منازل الشهداء أعلى مراتب الصالحين ، وأدنى منازل الصالحين أعلى مراتب المؤمنين .

الباب الخامس والعشرون

قولهم فيما أضيف إلى الأنبياء من الزلل

قال الجنيد والنوري وغيرهما من الكبار : إن ما جرى على الأنبياء إنما جرى على ظواهرهم ، وأسرارهم مستوفاة بمشاهدة الحق .

واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : (فنسى ولم نجد له عزما)[2] .

وقال : ولا تصح الأعمال حتى يتقدمها العقود والنيات ، وما لا عقد فيه ولا نية فليس بفعل ، وقد نفى الله تعالى الفعل عن آدم بقوله : (فنسى ولم نجد له عزما) .

قالوا : ومعاتبات الحق لهم إنما جاءت إعلاما للأغيار ليعلموا ، عند إتيانهم المعاصي ، مواضع الاستغفار .

---

(١) هذا تنويه عجيب بالأنبياء ، وهو تقدير هيهات أن يدركه غير هؤلاء وأمثالهم .

(٢) سورة طه ١١٥ .

وأثبتها بعضهم ، وقالوا : إنها كانت على جهة التأويل والخطأ فيه ، فعوتبوا عليها لعلو مرتبتهم وارتفاع منازلهم فكان ذلك زجراً لغيرهم ، وحفظاً لمواضع الفضل عليهم ، وتأديباً لهم .

وقال بعضهم : إنها كانت على جهة السهو والغفلة ، وجعلوا سهوهم فى الأدنى بالأرفع .

وهكذا قالوا فى سهو النبى صلى الله عليه وسلم فى صلاته : إن الذى شغله عن صلاته كان أعظم من الصلاة ، لقوله : « وجعلت قرة عينى فى الصلاة » ، فأخبر أن فى الصلاة ما تقر به عينه ، ولم يقل جعلت قرة عينى الصلاة .

وكل من أثبتها زللا وخطايا ، فإنهم جعلوها صغائر مقرونة بالتوبة ، كما قال الله تعالى مخبراً عن صفيه آدم وزوجه عليهما السلام : (ربنا ظلمنا أنفسنا)[1] . وقوله : (فتاب عليه وهدى)[2] ، وفى داود عليه السلام (وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب)[3] .

الباب السادس والعشرون

قولهم فى كرامات الأولياء

أجمعوا على إثبات كرامات الأولياء ، وإن كانت تدخل فى باب المعجزات[4] ، كالمشى على الماء ، وكلام البهائم ، وطى الأرض ، وظهور

---

(١) سورة الأعراف : ٢٣ .

(٢) سورة طه : ١٢٢ .

(٣) سورة ص : ٢٤ .

(٤) تدخل فى باب المعجزة بالمعنى اللغوى لأن كلا منهما أمر خارق للعادة وإن كانت المعجزة تقترن بالتحدى وإدعاء النبوة بخلاف الكرامة فإنها شىء يجريه الله على أوليائه تكريماً لهم ومكافأة إحسان وتشجيع .

الشيء في غير موضعه ووقته ، وقد جاءت الأخبار بها ، وصحت الروايات ، ونطق بها التنزيل ، من قصة الذى عنده علم من الكتاب فى قوله تعالى : (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك)(١) ، وقصة مريم حين قال لها زكريا : (أنى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله)(٢) ، وقصة الرجلين اللذين كانا عند النبى صلى الله عليه وسلم ثم خرجا فأضاء لهما سوطاهما وغير ذلك .

وجواز ذلك فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم وغير عصره واحد وذلك أنه إذا كانت فى عصر النبى للنبى صلى الله عليه وسلم على معنى التصديق له ، كان فى غير عصره على معنى التصديق ، وقد كان بعد النبى صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب حين نادى سارية قال لسارية : يا سارية بن حصن ، الجبل الجبل ، وعمر بالمدينة على المنبر ، وسارية فى وجه العدو على مسيرة شهر .

والأخبار فى هذا كثيرة وافرة .

وإنما أنكر جواز ذلك من أنكر ؛ لأن فيه زعم إبطال النبوات ، لأن النبى لا يظهر على غيره إلا بمعجزة يأتى بها تدل على صدقه ويعجز عنها غيره ، فإذا ظهرت على يدى غيره لم يكن بينه وبين من ليس بنبى فرق ولا دليل على صدقه .

قالوا : وفيه تعجيز الله عن إظهار نبى عن من ليس بنبى .

وقال أبو بكر الوراق : النبى لم يكن نبى للمعجزة ، وإنما كان نبيا بإرسال الله تعالى إياه ووحيه إليه ؛ فمن أرسله الله وأوحى إليه فهو نبى ، كانت معه معجزة أو لم تكن ، ووجب على من دعاه الرسول الإجابة له ، وإن لم يره معجزة ، وإنما كانت المعجزات لإثبات الحجة على من أنكر ، ووجوب كلمة العذاب على من عاند وكفر ، وإنما وجبت الإجابة للنبى بدعوته ، لأنه

(١) سورة النمل : ٤٠ (٢) سورة آل عمران : ٣٧

يدعوه إلى ما أوجب الله عليه : من توحيده ، ونفى الشركاء عنه ، وإتيان ما ليس فى العقل استحالته ، بل وجوبه أو جوازه .

والأصل فى ذلك أنهما عينان : نبيّ ومتنبى، فالنبى صادق ، والمتنبى كاذب، وهما يشتبهان فى الصورة والتركيب .

وأجمعوا : أن الصادق يؤيده الله بالمعجزة ، والكاذب لا يجوز له ما يكون للصادق ، لأن فى هذا تعجيز الله عن إظهار الصادق من الكاذب .

فأما إذا كان ولىٌّ صادق وليس بنبى ، فإنه لا يدعى النبوّة ، ولا ما هو كذب وباطل ، وإنما يدعو إلى ما هو حق وصدق ، فإن أظهر الله عليه كرامة ، لم يقدح ذلك فى نبوة النبى ، ولا أوجب شبهة فيها ، لأن الصادق يقول ما يقوله النبى ، ويدعو إلى ما يدعو إليه النبى ، فظهور الكرامة له تأييد للنبى ، وإظهار لدعوته ، وإلزام لحجّته ، وتصديقه فيما يدعوه ويدّعيه : من النبوة وإثبات توحيد الله عز وجل .

وجواز بعضهم أن يرى الله أعداءه فى خاصة أنفسهم وفيما لا يوجب شبهة: ما يخرج من العادات ، ويكون ذلك استدراجاً لهم ، وسبباً لهلاكهم ، وذلك أنها تولد فى أنفسهم تعظماً وكبرياء ، ويرون أنها كرامات لهم استأهلوها بأعمالهم ، واستوجبوها بأفعالهم ، فيتكلون على أعمالهم ، ويرون لهم الفضل على الخلق فيزرؤا[1] بعباده ، ويأمنوا مكره ، ويستطيلون على عباده .

وأما الأولياء فإنهم إذا ظهر لهم من كرامات الله شىء ، إزدادوا لله تذللا وخضوعا وخشية واستكانة ، وإزراء بنفوسهم ، وإيجابا لحق الله عليهم ، فيكون ذلك زيادة لهم فى أمورهم ، وقوة على مجاهداتهم ، وشكراً لله تعالى على ما أعطاهم .

فالذى للأنبياء معجزات ، وللأولياء كرامات ، وللأعداء مخادعات .

---

(١) فيتهاونون بهم ، يحتقرونهم .

وقال بعضهم : إن كرامات الأولياء تجرى عليهم من حيث لا يعلمون ، والأنبياء تكون لهم المعجزات وهم بها عالمون ، وبإثباتها ناطقون ، لأن الأولياء قد يخشى عليهم الفتنة مع عدم العصمة ، والأنبياء لا يخشى عليهم الفتنة بها ، لأنهم معصومون .

قالوا : وكرامة الولى بإجابة دعوة ، وتمام حال ، وقوة على فعل ، وكفاية مؤنة ، يقوم لهم الحق بها ، وهى مما يخرج عن العادات ومعجزات الأنبياء : إخراج الشيء من العدم إلى الوجود ، وتقليب الأعيان .

وجوز بعض المتكلمين ، وقوم من الصوفية ، إظهارها على الكذابين من حيث لا يعلمون ، وقت ما يدعونها فيما لا يوجب شبهة ، كما روى فى قصة فرعون من جرى النيل معه ، وكما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم فى قصة الدجال : أنه يقتل رجلا ثم يحييه فيما يخيل إليه .

قالوا : إنما جاز ذلك ، لأنهما ادعيا ما لا يوجب شبهة ، لأن أعيانهما تشهد على كذبهما فيما ادعياه من الربوبية .

واختلفوا فى الولى ، هل يجوز أن يعرف أنه ولى أم لا ، فقال بعضهم : لا يجوز ذلك . لأن معرفة ذلك تزيل عنه خوف العاقبة ، وزوال خوف العاقبة يوجب الأمن ، وفى وجوب الأمن زوال العبودية ، لأن العبد بين الخوف والرجاء ، قال الله تعالى : (ويدعوننا رَغبا ورَهبا)[1] .

وقال الأجلة منهم والكبار : يجوز أن يعرف الولى ولايته ، لأنها كرامة من الله تعالى للعبد، والكرامات والنعم يجوز أن يعلم ذلك فيقتضى زيادة الشكر .

والولاية ولايتان : ولاية تخرج من العداوة وهى لعامة المؤمنين ، فهذه لا توجب معرفتها والتحقق بها للأعيان ، لكن من جهة العموم ، فيقال : المؤمن ولى الله : وولاية اختصاص واصطفاء واصطناع ، فهذه توجب معرفتها

(١) سورة الأنبياء : ٩٠ .

والتحقق بها ، ويكون صاحبها محفوظاً عن النظر إلى نفسه ، فلا يدخله عجب ويكون مسلوبا من الخلق ، بمعنى النظر إليهم بحظ فلا يفتنونه ، ويكون محفوظا عن آفات البشرية ، وإن كان طبع البشرية قائما معه باقيا فيه ، فلا يستحلى حظا من حظوظ النفس استحلاء يفتنه فى دينه ، واستحلاء الطبع قائم فيه ، وهذه هى خصوص الولاية من الله للعبد .

ومن كان بهذه الصفة لم يكن للعدو إليه طريق بمعنى الإغواء ، لقوله جل وعز : (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان)[1] ، وهو مع هذا ليس بمعصوم من صغيرة ولا كبيرة ، فإن وقع فى إحديهما قارنته التوبة الخالصة .

والنبى المعصوم لا يجرى عليه كبيرة بإجماع ، ولا صغيرة عند بعضهم .

وزوال خوف العاقبة ليس بممتنع ، بل هو جائز ، فقد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه بأنهم من أهل الجنة ، وشهد للعشرة بالجنة ، والراوى له سعيد بن زيد وهو أحد العشرة المبشرة بالجنة ، وشهادة النبى صلى الله عليه وسلم توجب سكونا إليها طمأنينة بها وتصديقا لها ، وهذا يوجب الأمن من التغيير وزوال خوف التبديل لامحالة .

والروايات التى جاءت فى خوف المبشرين من قول أبى بكر رضى الله عنه : ياليتنى كنت تمرة ينقرها الطير .

وقول عمر رضى الله عنه : ياليتنى كنت هذه النبتة ، ليتنى لم أك شيئا .

وقول أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه : وددت أنى كبش ، فيذبحنى أهلى ، ويأكلون لحمى ، ويحسون مرقى .

وقول عائشة رضى الله عنها : يا ليتنى كنت ورقة من هذه الشجرة ، وهى من شهد لها عمار بن ياسر على منبر الكوفة فقال : أشهد أنها زوجة النبى صلى الله عليه وسلم فى الدنيا والآخرة .

---

(١) سورة الحجر ٤٢ .

إنما كان ذلك منهم خوفا من جريان المخالفات عليهم ، إجلالا لله تعالى وتعظيما لقدره ، وهيبة له ، وحياء منه ، بأنهم أجلوا الحق أن يخالفوه وإن لم يعاقبهم .

كما قال عمر رضى الله عنه : نعم المرء صهيب ، لو لم يخف الله لم يعصه .

يعنى أن صهيباً ليس يترك المعصية لله خوف عقوبته ، ولكنه يتركها إجلالا له ، وتعظيما لقدره ، وحياء منه .

فخوف المبشرين لم يكن خوفا من التغيير والتبديل ، لأن خوف التغيير والتبديل مع شهادة النبى صلى الله عليه وسلم ، يوجب شكا فى أخبار النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا كفر ، ولم يكن ذلك خوف عقوبة فى النار دون الخلود فيها ، لعلمهم أنهم لا يعاقبون بالنار على مايكون منهم ، لأنها إما أن تكون صغائر فتكون مغفورة باجتناب الكبائر ، أو بما يصيبهم من البلوى فى الدنيا .

فقال عبد الله بن عمر فيما روى عن أبى بكر الصديق له : كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزلت هذه الآية : « من يعمل سوءاً يجز به »[1] فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أقرئك آية أنزلت على ؟ » .

قلت : بلى يارسول الله .

قال : « فأقرأنيها » .

فلا أعلم ما أصابنى ، إلا وجدت إنقصاما فى ظهرى ، فتمطيت لها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما شأنك يا أبا بكر ؟ » .

فقلت : يارسول الله ، بأبى أنت وأمى ، وأينا لم يعمل سوءاً ، وإنا لمجزون بما عملنا ؟

---

(١) سورة النساء الآية ١٣٢ .

فقال رسول الله صلى عليه وسلم : « أما أنت يا أبا بكر والمؤمنون فتجزون بذلك فى الدنيا ، حتى تلقوا الله وليس لكم ذنوب ، وأما الآخرون فيجمع لهم ذلك حتى يجزوا به يوم القيامة »(١) .

أو تكون كبائر فتقارنها التوبة لامحالة ، فتصبح بشارة النبى صلى الله عليه وسلم لهم بالجنة .

على أن هذا الحديث قد بيّن أنه يأتى يوم القيامة ولا ذنب له .

قال النبى صلى الله عليه وسلم لعمر : « وما يدريك لعل الله أطلع على أهل بدر » فقال : « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »(٢) .

ولو كان كما قال بعض الناس : إنهم بشروا بالجنة ولم يبشروا بأنهم لايعاقبون ، فكان خوفهم من النار وإن علموا أنهم لايخلدون فيها ، لكان المبشرون وغيرهم من المؤمنين فى ذلك سواء ، لأنهم لامحالة يخرجون منها .

ولو جاز دخول أبى بكر وعمر النار ، مع قول النبى صلى الله عليه وسلم : « هما سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين »(٣) جاز دخول الحسن والحسين ، مع قوله : « هما سيدا شباب أهل الجنة » .

---

(١) هذا الحديث رواه أبو بكر بن مردويه بسنده إلى عمر بن الخطاب عن أبى بكر الصديق ثم قال وكذا رواه الترمذى عن يحى بن موسى وعبد بن حميد عن يحى بن عبادة .

وفى سنده موسى بن عبيدة يضعف ومولى بن سباع وهو مجهول - كما فى تفسير ابن كثير وقد روى أن كثير هذا المعنى بعدة أسانيد فاتراجع فى تفسير الآية .

(٢) هذا الحديث أخرجه أحمد عن سفيان عن عمه ، وأخرجه الجماعة كلهم إلا ابن ماجه من غير وجه عن سفيان بن عيينة . راجع ابن كثير جزء ٤ ص٣٤٥ .

(٣) الترمذى وقد سبق والذى بعده أخرجه الترمذى وصححه .

فإن كانت سادة أهل الجنة يجوز أن يدخلهم الله النار ويعذبهم بها ، لم يجز أن يدخل أحد الجنة إلا بعد أن يعذب بالنار .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع فى أفق السماء ، وإن أبا بكر وعمر منهما وأنعما »[١] .

فإن كانا هذان يدخلان النار ويخزيان فيها لأن الله تعالى قال : « إنك من تدخل النار فقد أخزيته »[٢] ، فكيف بغيرهما ؟

وقال ابن عمر : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد وأبو بكر وعمر ، أحدهما عن يمينه ، والآخر عن شماله ، وهو آخـــذ بأيديهما وقال : « هكذا نبعث يوم القيامة » .

فإن جاز دخولهما النار جاز دخول الثالث .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يدخل من أمتى الجنة سبعون ألفا بغير حساب »[٣] .

فقال عكاشة بن محصن الأسدى : يارسول الله ، ادع الله أن يجعلنى منهم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أنت منهم » .

وأبو بكر وعمر أفضل من عكاشة لامحالة ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم « هما سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين » .

فكيف يجوز أن يدخل عكاشة الجنة بغير حساب ، وهو دونهما فى الفضل وهما فى النار ! فهذا غلط كبير .

---

(١) رواه أحمـــد والترمذى وابن حبان فى صحيحه وابن ماجه عن أبي سعيد ورواه الطبرانى عن جابر بن سمرة ورواه ابن عساكر عن ابن عمرو وأبى هريرة وسنده صحيح كما فى الجامع الصغير للسيوطى .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٩٦ .

(٣) الحديث فى صحيح البخارى وفى مسند البزاز بسند صحيح .

فقد صحّ بهذه الأخبار أنه لا يجوز أن يكونا معذبين بالنار مع شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم لهما بالجنة ، فقد تبين أمنهما ؛ فهما قيل فيهما وفى غيرهما من المبشرين كان ذلك قولا فيمن سواهما من الأولياء من جواز الأمن.

وأما طريق معرفة سائر الأولياء دون المبشرين إذ كان المبشرون إنما علموا ذلك بإخبار النبي صلى الله عليه وسلم ، وغيرهم لم يكن فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيخبرهم، فإنهم إنما يعرفون بما يحدث الله فيهم من اللطائف التى يخص بها أولياءه ، وبما يورد على أسرارهم من الأحوال التى هى أعلام ولايته ، من اختصاصه لهم به ، وجذبه لهم مما سواه إليه ؛ وزوال العوارض عن أسرارهم ، وفناء الحوادث لهم ، والصوارف عنه إلى غيره ، ووقوع المشاهدات والمكاشفات التى لا يجوز أن يفعلها الله تعالى إلا بأهل خاصته ، ومن اصطفاه لنفسه فى أزله ، مما لا يفعل مثلها فى أسرار أعدائه .

فقد ورد الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه لم يفضلكم بكثر الصوم والصلاة ، ولكن فضلكم بشيء وقر فى صدره ـ أو فى قلبه ـ فهذا معنى الحديث[1] .

ويؤمنهم أن يجدون فى أسرارهم كرامات ومواهب ، وأنها على الحقيقة ، وليست بمخادعات ، كالذى كان للذى آتاه آياته فانسلخ منها ، ومعرفتهم أن إعلام الحقيقة لا يجوز أن يكون كإعلام الخداع والمكر ، لأن إعلام المخادعات تكون ظاهرة : من ظهور ما خرج من العادة مع ركون المخدوع بها إليها واغترارهم بها ، فيظنوا أنها علامات الولاية والقرب ، وهو فى الحقيقة خداع وطرد ، ولو جاز أن يكون ما يفعله بأوليائه من الاختصاص

(١) هذا الحديث يذكره الصوفية كثيراً ولم نطلع عليه ولعل لأهل الحديث به خبرة .

كما يفعله بأعدائه من الاستدراج ، لجاز أن يفعل بأنبيائه ما يفعل بأعدائه ، فيبعد أنبياءه ويلعنهم كما فعل بالذى آتاه آياته ، وهذا لا يجوز أن يقال فى الله عز وجل ، ولو جاز أن يكون للأعداء أعلام الولاية ، وأمارات الاختصاص ، ويكون دلائل الولاية لا تدل عليها ، لم يقم للحق دليل بتة ، وليست أعلام الولاية من جهة حلية الظواهر ، وظهور ما خرج من العادة لهم فقط ، لكن أعلامها : إنما تكون فى السرائر بما يحدث الله تعالى فيها مما يعلمه الله تعالى وما يجده فى سره(١) .

الباب السابع والعشرون

قولهم فى الإيمان

الإيمان عند الجمهور منهم : قول ، وعمل ، ونية ، ومعنى النية التصديق .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من طريق جعفر بن محمد عن آبائه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « الإيمان إقرار باللسان، وتصديق بالقلب، وعمل بالأركان » .

قالوا : أصل الإيمان : إقرار اللسان بتصديق القلب ، وفرعه العمل بالفرائض .

وقالوا : الإيمان فى الظاهر والباطن ، والباطن شىء واحد وهو القلب والظاهر أشياء مختلفة .

---

(١) أطنب الشيخ فى هذا الموضع وهو كلام قيم متين .

(٢) فى الجامع الصغير للسيوطى الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان رواه الطبرانى وابن ماجه بسنده إلى على بن أبى طالب وهو ضعيف الاسناد وفيه الشيرازى بسنده إلى عائشة بسند ضعيف .

وأجمعوا أن وجوب الإيمان ظاهراً كوجوبه باطناً وهو الإقرار غير أنه قسط جزء من أجزاء الظاهر دون جميعه ، ولما كان قسط الباطن من الإيمان قسط جميعه ، وجب أن يكون قسط الظاهر من الإيمان قسط جميعه وقسط جميعه هو العمل بالفرائض[1] ، لأنه يعم جميع الظاهر كما عم التصديق جميع الباطن .

وقالوا :الإيمان يزيد وينقص .

وقال الجنيد ، وسهل ، وغيرهما من المتقدمين منهم : إن التصديق يزيد ولا ينقص ، ونقصانه يخرج من الإيمان،لأنه تصديق بأخبار الله تعالى وبمواعيده، وأدنى شك فيه كفر[2] ، وزيادته من جهة القوة واليقين وإقرار اللسان لا يزيد ولا ينقص، وعمل الأركان يزيد وينقص .

وقال قائل منهم : المؤمن اسم الله تعالى ، قال الله جل جلاله : (السلام المؤمن المهيمن)[3] ، وهو يؤمن المؤمن بإيمانه من عذابه ، والمؤمن إذا أقر وصدق ، وأتى بالأعمال المفترضات ، وانتهى عن المنهيات أمن عذاب الله ، ومن لم يأت بشيء من ذلك ، فهو مخلد في النار ؛ والذى أقر وصدق وقصر فى الأعمال ، فجائز أن يكون معذباً غير مخلد ، فهو آمن من الخلود غير آمن من العذاب ، فكان أمنه ناقصا غير كامل ، وأمن من أتى بها كلها أمناً تاماً

---

(١) هذا اتجاه يحدد العمل بالأركان ويحصره فى أداء الفرائض فالأعمال النوافل طاعات خارج الإيمان وليست فيه وهو كلام متجه .

(٢) نقصان الإيمان على هذا الوجه يعتبر كفراً فينتهى إلى أن الإيمان لا ينقص . ويلتقى مع مذهب الماتريدية أن الإيمـان لا ينقص مع أن الماتريدية وأصحاب أبي حنيفة يقولون إنه لا يزيد كذلك ولذلك فنقل عن أبي حنيفة أنه قال إيمـاني كإيمان أهل السماء والأرض وجبريل والملائكة وهو باعتبار أن الإيمـان اعتقاد فقط والعمل كله خارج عنه .

(٣) سورة الحشر الآية ٢٣ .

غير ناقص ، فوجب أن يكون نقصان أمنه لنقصان إيمانه ، إذ كان تمام أمنه لتمام إيمانه .

وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم إيمان من قصر في واجب بالضعف فقال : « وذلك أضعف الإيمان »[1] ، وهو الذي يرى المنكر فينكره بباطنه دون ظاهره ، فأخبر أن إيمان الباطن دون الظاهر ، إيمان ضعيف .

ووصفه بالكمال فقال : « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا »[2] ، والأخلاق تكون في الظاهر والباطن ، فاعم الجميع وصف بالكمال ، وما لم يعم الجميع وصف بالضعف .

وقال بعضهم : زيادة الإيمان ونقصانه من جهة الصفة لا من جهة العين ، فزيادة الإيمان من جهة الجودة والحسن والقوة ، ونقصانه من نقصانها لا من جهة العين .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا أربع » ، وهن مريم وفاطمة وخديجة وعائشة ، رضي الله عنهن[3] .

ولم يكن نقصان سائر النساء من جهة أعيانهن ولكن من جهة الصفة .

---

(١) في حديث من رأى منكم منكراً فليغير بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه . وذلك أضعف الإيمان — رواه أحمد ومسلم عن أبي سعيد وهو صحيح الإسناد .

(٢) رواه أحمد وأبو داود وابن حبان والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة وهو صحيح الإسناد .

(٣) الحديث كما في الجامع الصغير أكمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام — رواه أحمد والشيخان والنسائي وابن ماجه .

ووصفهن أيضاً بنقصان العقل والدين ، وفسر نقصان دينهن بتركهن الصلاة والصيام في الحيض .

والدين الإسلام ، وهو والإيمان واحد عند من لا يرى العمل من الإيمان —

وسئل بعض الكبراء عن الإيمان فقال : الإيمان من الله لا يزيد ولا ينقص ومن الأنبياء يزيد ولا ينقص ، ومن غيرهم يزيد وينقص .

فمعنى قوله : من الله يزيد ولا ينقص : أن الإيمان صفة لله تعالى ، وهو موصوف به ، قال الله تعالى : (السلام المؤمن المهيمن) ، وصفات الله لا توصف بالزيادة والنقصان .

ويجوز أن يكون الإيمان من الله جل وعز هو الذى قسمه للعبد منه فى سابق علمه لا يزيد وقت ظهوره ولا ينقص عما علمه منه وقسمه له[1] .

والأنبياء فى مقام المزيد من الله تعالى من جهة القوة واليقين ومشاهدات أحوال الغيوب ، كما قال تعالى : (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين)[2] .

وسائر المؤمنين يزيد إيمانهم فى بواطنهم بالقوة واليقين ، وينقص من فروعه بالتقصير فى الفرائض وارتكاب المناهى .

والأنبياء معصومون عن ارتكاب المناهى ومحفوظون فى الفرائض عن التقصير ، فلا يوصفون بالنقصان فى شىء من أوصافهم فى حقائق الإيمان .

---

(١) هذا أقرب لأن إيمان الله سبحانه الوارد فى الآية بمعنى إيمان الخائف مما يخاف كما سبق .

(٢) سورة الأنعام الآية ٧٥ .

الباب الثامن والعشرون

قولهم فى حقائق الإيمان

قال بعض الشيوخ : حقائق الإيمان أربعة : توحيد بلا حد ، وذكر بلا بت ، وحال بلا نعت ، ووجد بلا وقت .

معنى : حال بلا نعت : أن يكون وصفه حاله حتى لا يصف حالا من الأحوال الرفيعة إلا وهو بها موصوف . ووجد بلا وقت : أن يكون مشاهدا للحق فى كل وقت .

وقال بعضهم : من صح إيمانه لم ينظر إلى الكون وما فيه ، لأن خساسة الهمة من قلة المعرفة بالله تعالى .

وقال بعضهم : صدق الإيمان : التعظيم لله وثمرته الحياء من الله .

وقيل : المؤمن منشرح الصدر بنور الإسلام ، منيب القلب إلى ربه ، شهيد الفؤاد لربه ، سليم اللب متعوذ بربه ، محترق بقربه ، صارخ من بعده .

وقال بعضهم : الإيمان بالله مشاهدة ألوهيته .

وقال أبو قاسم البغدادى : الإيمان هو الذى يجمعك إلى الله ويجمعك بالله والحق واحد ، والمؤمن متوحد ، ومن وافق الأشياء فرقته الأهواء ، ومن تفرق عن الله بهواه ، وتبع شهوته وما يهواه ، فاته الحق ، ألا ترى أنه أمرهم بتكرير العقود عند كل خطرة ونظرة ، فقال : (يا أيها الذين آمنوا آمنو بالله ورسوله)[١] .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « الشرك أخفى فى أمتى من دبيب النمل على الصفا فى الليلة الظلماء »[٢] .

---

(١) سورة النساء آية ١٣٦ .

(٢) الحاكم فى المستدرك وأبو نعيم فى الحلية والحكيم كما فى الجامع للسيوطى .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم تعس عبد بطنه ، تعس عبد فرجه ، تعس عبد الخميصة » .

وسألت بعض مشايخنا عن الإيمان ، فقال : هو أن يكون الكل منك مستجيبا فى الدعوة مع حذف خواطر الانصراف عن الله بسرك ، فتكون شاهداً لما له ، غائبا عما ليس له .

وسألته مرة أخرى عن الإيمان ، فقال : الإيمان ما لا يجوز إتيان ضده .

وفى قوله : (يا أيها الذين آمنوا)(١) يا أهل صفوتى ومعرفتى ، يا أهل قربى ومشاهدتى .

وجعل بعضهم الإيمان والإسلام واحداً .

وفرق بعضهم بينهم ، فقال من فرق بينهما : الإسلام عام والإيمان خاص .

وقال بعضهم : الإسلام ظاهر ، والإيمان باطن .

وقال بعضهم : الإيمان تحقيق واعتقاد ، والإسلام خضوع وانقياد .

وقال بعضهم : التوحيد سر ، وهو تنزيه الحق عن دركه ، والمعرفة بر ، وهو أن تعرفه بصفاته ، والإيمان عقد القلب بحفظ السر ومعرفة البر ، والإسلام مشاهدة قيام الحق بكل ما أنت به مطالب .

الباب التاسع والعشرون

قولهم فى المذاهب الشرعية

إنهم يأخذون لأنفسهم بالأحوط والأوثق فيما اختلف فيه الفقهاء ، وهم

---

(١) هذا التعبير مكرر كثيراً فى القرآن الكريم وفى السور التى نزلت بالمدينة ، وهو يريد بذلك تفسير الإيمان الوارد فى هذه العبارة بأنه الصفوة والمعرفة والقرب والمشاهدة وما أكثر المعانى والتعبيرات عن حق الإيمان كما فعل المؤلف وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم والإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان .

مع إجماع الفريقين فيما أمكن ، ويرون اختلاف الفقهاء صوابا ولا يعترض الواحد منهم على الآخر ، وكل مجتهد عندهم مصيب ، وكل من اعتقد مذهبا فى الشرع ، وصح ذلك عنده بما يصح مثله مما يدل عليه الكتاب والسنة ، وكان من أهل الاستنباط فهو مصيب باعتقاده ذلك ، ومن لم يكن من أهل الاجتهاد أخذ بقول من أفتاه ممن سبق إلى قلبه من الفقهاء أنه أعلم وقوله حجة له[1] .

وأجمعوا على تعجيل الصلوات ، وهو الأفضل عندهم مع التيقن بالوقت .

ويرون تعجيل أداء المفترضات عند وجوبها ، لا يرون التقصير والتأخير والتفريط فيها لعذر .

ويرون تقصير الصلاة فى السفر ، ومن أدمن السفر منهم ولم يكن له مقر أتم الصلاة .

ورأوا الفطر فى السفر جائزاً .

واستطاعة الحج عندهم الإمكان من أى وجه كان ، ولا يشترطون الزاد والراحلة فقط .

قال ابن عطاء : الاستطاعة اثنان : حال ومال ، فمن لم يكن له حال يقله ولا مال يبلغه لا يجب عليه .

الباب الثلاثون

قولهم فى المكاسب

أجمعوا على إباحة المكاسب من الحرف والتجارات والحرث ، وغير ذلك

(١) مسلكهم فى اعتبار كل مجتهد مصيباً مبنى على أن الحق يتعدد وهو خلاف الحق ويبدو أنه ليس محل وفاق بينهم كما أنه محل خلاف بين الأصوليين ويؤيد القائل بالخطأ من بعض المجتهدين الحديث المشهور بينهم من اجتهد فأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر .

ذلك مما أباحته الشريعة عن تيقظ وتثبت وتحرر من الشبهات ، وأنها تعمل للتعاون وحسم الأطماع ونية العود على الأغيار أو العطف على الجار ، وهى عندهم واجبة لمن ربط به غيره ممن يلزمه فرضه .

وسبيل المكاسب عند الجنيد ما سبق من الشرط : سبيل الأعمال المقربة إلى الله عز وجل .

ويشتغل العبد بها على حسب ما يشتغل فى إتيان ما ندب إليه من النوافل لا على أن بها تجلب الأرزاق وتجر المنافع (١) .

وهى عند غير مباح للفرد ليس بواجب عليه من غيره أن يقدح فى توكله أو يجرح دينه .

والاشتغال بوظائف الحق أولى وأحق ، والإعراض عنه عند صحة التوكل والثقة بالله أوجب .

وقال سهل : لا يصح الكسب لأهل التوكل إلا لإتباع السنة ولا لغيرهم إلا للتعاون .

هذا ما تحققناه وصح عندنا من مذاهب القوم ، من أقاويلهم فى كتبهم ممن ذكرنا أساميهم ابتداء ، وما سمعناه من الثقات ، ممن عرف أصولهم وتحقق مذاهبهم ، والذى فهمناه من رموزهم وإشاراتهم فى ضمن كلامهم ، قال وليس كل ذلك مسطوراً لهم على حسب ما حكيناه وأكثر ما ذكرنا من العلل والاحتجاج ، فمن كلامنا عبارة عما حصلناه من كتبهم ورسائلهم .

---

(١) هذا التصوير دقيق جدا وهو صميم الدين والنصوص فى هذا المقام وهو تحقيق لقول المتكلمين إن الله سبحانه يخلق المسببات عند الأسباب لأبها وقد دل مجموع كلامه على أن مباشرة الأسباب تكون عبادة نافلة عند عدم الارتباط بمن يلزمه الاتفاق عليه وإذا ارتبط بغيره كانت الأسباب واجبة وما أجمل ذلك المسلك فى استنباط الحكم من الأدلة الشرعية وإنما جعل الأسباب مباحة عند توغير الصوفى لأنه لا يحسن نية العبادة فلا تكون عبادة لأن النية هى الأصل فى ذلك .

ومن تدبر كلامهم وفحص كتبهم ، علم صحة ما حكيناه ، ولولا أنا كرهنا الإطالة والإكثار لكنا نذكر مكان ما حكيناه من كلامهم كتبهم نصاً ودلالة ، إذ ليس كل ذلك مرسوما فى الكتب على التصريح .

ونذكر الآن بعض ما تخصصوا به من أقاويلهم ، وما استعملوه من ألفاظهم مما تفردوا به ، والعلوم التى عنوا بها وما يدور كلامهم عليه ونشرح بعض ما يمكن شرحه ، وبالله نستعين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

الباب الحادى والثلاثون

علوم الصوفية علوم الأحوال

أقول وبالله التوفيق : اعلم أن علوم الصوفية علوم الأحوال والأحوال مواريث الأعمال ، ولا يرث الأحوال إلا من صحح الأعمال .

وأول تصحيح الأعمال : معرفة علومها ، وهى علم الأحكام الشرعية من أصول الفقه وفروعه : من الصلاة ، والصوم ، وسائر الفرائض ، إلى علم المعاملات : من النكاح ، والطلاق والمبايعات وسائر ما أوجب الله تعالى وندب إليه وما لا غناء به من أمور المعاش .

وهذه علوم التعلم والاكتساب :

فأول ما يلزم العبد : الاجتهاد فى طلب هذا العلم وإحكامه على قدر ما أمكنه ووسعه طبعه وقوى عليه فهمه بعد إحكام علم التوحيد والمعرفة ، على طريق الكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح عليه ، القدر الذى يتيقن بصحة ما عليه أهل السنة والجماعة فإن وفق لما فوقه من نفى الشبه التى تعترضه من خاطر أو ناظر [١] ، فذاك ، وإن أعرض عن خواطر السوء اعتصاما بالجملة التى عرفها ، وتجافى عن المناظر الذى يحاجه فيه ويجادله عليه وباعده

(١) الصواب مناظر كما يعلم بعد .

(فهو فى سعة إن شاء الله عز وجل)(١) . واشتغل باستعمال علمه وعمل بما علم ،

فأول ما يلزمه : علم آفات النفس ، ومعرفتها ، ورياضتها ، وتهذيب أخلاقها ، ومكائد العدو ، وفتنة الدنيا ، وسبيل الاحتراز منها ، وهذا العلم علم الحكمة(٢) .

فإذا استقامت النفس على الواجب ، وصلحت طباعها ، وتأدبت بآداب الله عز وجل ، من زم جوارحها ، وحفظ أطرافها ، وجمع حواسها ، سهل عليه إصلاح أخلاقها وتطهير الظاهر منها والفراغ مما لها ، وعزوفها عن الدنيا وإعراضها عنها .

فعند ذلك يمكن العبد مراقبة الخواطر ، وتطهير السرائر ، وهذا هو علم المعرفة .

ثم وراء هذا علوم الخواطر ، وعلوم المشاهدات والمكاشفات ، وهى التى تختص بعلم الإشارة ، وهو الذى تفردت به الصوفية ، بعد جمعها سائر العلوم التى وصفناها .

وإنما قيل : علم الإشارة ، لأن مشاهدات القلوب ومكاشفات الأسرار لا يمكن العبارة عنها على التحقيق بل تعلم بالمنازلات والمواجيد ، ولا يعرفها إلا من نازل تلك الأحوال وحل تلك المقامات .

روى سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من العلم كهيئة المكنون ، لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله »(٣) .

وعن عبد الواحد بن زيد قال : سألت الحسن عن علم الباطن فقال :

---

(١) ينبغى تأخير هذه الجملة عما بعدها وذلك واضح .

(٢) أفاض الإمام الغزالى فى شرح ذلك فى كتاب العلم أول الأحياء وفى كتاب شرح عجائب القلب من الجزء الثالث .

سألت حذيفة بن اليمان عن علم الباطن فقال : سألت رسول الله عن علم الباطن فقال : « سألت جبريل عن علم الباطن فقال : سألت الله عز وجل عن علم الباطن فقال : هو سر من سرى ، أجعله فى قلب عبدى ، لا يقف عليه أحد من خلقى .

قال أبو الحسن بن أبى ذر فى كتابه منهاج الدين أنشدونا للشبلى :

عِلْمُ التصوُّفِ عِلْمٌ لا نفادَ لهُ   عِلْمٌ سَنِىٌّ سَماوىٌّ رَبوبى
فيهِ الفوائدُ لِلأرْبابِ يَعرِفُها   أهلُ الجزالةِ والصُّنعِ الخصوصى

ثم لكل مقام بدء ونهاية ، وبينهما أحوال متفاوتة ولكل مقام علم ، وإلى كل حال إشارة ، ومع كل مقام إثبات ونفى ، وليس كل ما نفى فى مقام كان منفيا فيما قبله ، ولا كل ما أثبت فيه كان مثبتا فيما دونه .

وهو كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا إيمان لمن لا أمانة له »[1] .

فنفى إيمان الأمانة لا إيمان العقد[2] ، والمخاطبون أدركوا ذلك ، إذ كانوا قد حلوا مقام الأمانة أو جاوزوه إلى ما فوقه ، وكان عليه السلام مشرفا على أحوالهم فصرح لهم .

وأما من لم يشرف على أحوال السامعين ، وعبر عن مقام ، فنفى فيه وأثبت ، جاز أن يكون فى السامعين من لم يحل ذلك المقام وكان الذى نفاه القائل مثبتاً فى مقام السامع ، فيسبق إلى وهم السامع أنه نفى ما أثبته العلم ، فخطأ قائله أو بدعه ، وربما كفره .

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط فى حديث طويل بإسناد ضعيف .

(٢) تأبين لفكرة أن النفى عن الشىء لا يستلزم إطراد النفى عنه فى كل حال فالمنفى فى الحديث نوع من الإيمان وهو ما يحقق الأمانة وليس المنفى هو الإيمان بمعنى القصيدة فليس من المعقول الحكم على الخائن بأنه كافر فاقد الإيمان .

فلما كان الأمر كذلك اصطلحت هذه الطائفة على ألفاظ فى علومها تعارفوها بينهم ورمزوا بها ، فأدركه صاحبه وخفى على السامع الذى لم يحل مقامه ، فإما أن يحسن ظنه بالقائل فيقبله ويرجع إلى نفسه فيحكم عليها بقصور فهمه عنه ، أو يسوء ظنه به فيهوس قائله وينسبه إلى الهذيان ، وهذا أسلم له من رد حق وإنكاره .

قال بعض المتكلمين لأبى العباس بن عطاء : ما بالكم أيها المتصوفة قد اشتققتم ألفاظا أغربتم بها على السامعين ، وخرجتم عن اللسان المعتاد ، هل هذا إلا طلب للتمويه أو ستر لعوار المذهب ؟

فقال أبو العباس : ما فعلنا ذلك إلا لغيرتنا عليه ، لعزته علينا ، كيلا يشربها غير طائفتنا ، ثم اندفع يقول :

أحسنُ ما أظهرَهُ ونُظارُهُ   بادىء حقّ للقلوبِ نشرُهُ
يُخبرنى عنى وعنهُ أخبرهُ   أكسوهُ مِن رَونقِهِ ما يَسترُه
عنْ جاهلٍ لا يَستطيعُ يَنشرُهُ   يَفسدُ مَعناهُ إذا ما يعبرُه
فلا يُطيقُ اللفظَ بل لا يَعشرُه   ثم يُوافى غيرَهُ فيُخبرُه
فيُظهرُ الجهلَ وتبدُو زَمرُه   ويَدرسُ العلمُ ويَعفو أثرُه

وأنشدونا أيضاً له :

إذا أهلُ العبارةِ سأئلونا   أجبناهم بأعلامِ الإشارَة
نُشيرُ بها فنجعلُها غُمُوضا   تقصّرُ عنه ترجمةُ العبارة
ونَشهدُها وتُشهدُنا سُرُوراً   لهُ فى كلِّ جارحةٍ إثارَة
ترى الأقوالَ فى الأحوالِ أسرى   كأسرِ العارفينَ ذوى الخسارة

الباب الثانى والثلاثون

فى التصوف ما هو

سمعت أبا الحسن محمد بن أحمد الفارسى يقول: أركان التصوف عشرة :

أولها : تجريد التوحيد ، ثم فهم السماع ، وحسن العشرة ، وإيثار الإيثار ، وترك الاختيار ، وسرعة الوجد ، والكشف عن الخواطر ، وكثرة الأسفار ، وترك الاكتساب ، وتحريم الادخار .

معنى تجريد التوحيد : أن لا يشوبه خاطر تشبيه أو تعطيل .

وفهم السماع : أن يسمع بحاله لا بالعلم فقط .

وإيثار الإيثار : أن يؤثر على نفسه بالإيثار ليكون فضل الإيثار لغيره .

وسرعة الوجد : أن لا يكون فارغ السر مما يثير الوجد ولا ممتلىء السر مما يمتنع من سماع زواجر الحق .

والكشف عن الخواطر : أن يبحث عن كل ما يخطر على سره فيتابع ما للحق ويدع ما ليس له .

وكثرة الأسفار : لشهود اعتبار فى الآفاق والأقطار .

قال الله تعالى : (أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم)(١) ، (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق)(٢) .

وقيل فى قوله عز وجل : (قل سيروا فى الأرض) ، قال : بضياء المعرفة لا بظلمة النكرة ، ولقطع الأسباب ، ورياضة النفوس ، وترك الاكتساب لمطالبة النفوس بالتوكل ، وتحريم الادخار فى حالة لا فى واجب العلم .

كما قال النبى صلى الله عليه وسلم ، فى الذى مات من أهل الصفة وترك ديناراً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كية » .

---

(١) سورة الروم آية ٩ (٢) العنكبوت آية ٢٠

الباب الثالث والثلاثون

فى الكشف عن الخواطر

قال بعض الشيوخ : الخاطر على أربعة أوجه ، خاطر من الله عز وجل ، وخاطر من الملك ، وخاطر من النفس ، وخاطر من العدو .

فالذى من الله تنبيه ، والذى من الملك حث على الطاعة ، والذى من النفس مطالبة الشهوة ، والذى من العدو تزيين المعصية .

فبنور التوحيد يقبل من الله ، وبنور المعرفة يقبل من الملك، وبنور الإيمان ينهى النفس ، وبنور الإسلام يرد على العدو .

الباب الرابع والثلاثون

فى التصوف والاسترسال

قال الجنيد : التصوف حفظ الأوقات ، قال : وهو أن لا يطالع العبد غير حده ، ولا يوافق غير ربه ، ولا يقارن غير وقته .

وقال ابن عطاء : التصوف الاسترسال مع الحق .

قال أبو يعقوب السوسى : الصوفى هو الذى لا يزعجه سلب ولا يتعبه طلب.

قيل للجنيد : ما التصوف ؟

قال . لحوق السر بالحق ، ولا ينال ذلك إلا بفناء النفس من الأسباب لقوة الروح والقيام مع الحق .

وسئل الشبلى . لم سميت الصوفية صوفية ؟

قال . لأنها ارتسمت بوجود الرسم وإثبات الوصف ، ولو ارتسمت بمحو الرسم لم يكن إلا الرسم ومثبت الوصف ، فأحالهم على رسومهم ، وأنكر أن يكون للمتحقق رسم أو وصف .

قال أبو يزيد : الصوفية أطفال فى حجر الحق[١] .

قال أبو عبد الله النباجى : مثل التصوف مثل علة البرسام فى أولها هذيان فإذا تمكنت أخرست، يعنى أنه يعبر عن مقامه وينطلق بعلم حاله ، فإذا كوشف تحير وسكت .

سمعت فارسا يقول : متى تظاهر فى خواطر المجوس ، على دواعى ملمات النفوس ، وجد السبيل إلى ترجيح الأول فيقع النشر . وأما الوصلة فإنما تحجب مواد الإملاك ، فيكون المرجع إلى الخرس عن كل نفس .

سئل النورى عن التصوف ، فقال : نشر مقام واتصال بدوام .

قيل له : فما أخلاقهم ؟

قال : إدخال السرور على غيرهم ، والإعراض عن أذاهم .

قال الله تعالى : (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)[٢] .

معنى نشر مقام ، هو أن يعبر عن حاله إذا عبر ، لا عن حال غيره بلسان العلم .

ومعنى اتصال بدوام ، هو أن يحمله حاله فى حاله عن حال غيره ، وأنشدونا للنورى .

أزعجتنى عن نعوت الحال بالحال   وكيف ينعت من لا قول بالقال
ما كل من يدعى حالا تصدقه   حتى يترجم عنه صاحب الحال

ونريد أن نخبر الآن بعض المقامات على لسان القوم من غير بسط كراهة الإطالة ونحكى من مقالات المشايخ فيها ما قرب منها إلى الأفهام دون الرموز الخفية الإشارات الدقيقة ، ونبدأ بالتوبة .

---

(١) هذا على سبيل الغرض والتقريب فيقبل لذلك على ما فيه من تطاول .
(١) سورة الأعراف آية ١٩٨ .

الباب الخامس والثلاثون

قولهم فى التوبة

سئل الجنيد بن محمد عن التوبة ما هى ؟ فقال : هو نسيان ذنبك ، وسئل سهل عن التوبة ، فقال : هو أن لا تنسى ذنبك[١] .

فمعنى قول الجنيد : أن تخرج حلاوة ذلك الفعل من قلبك خروجا لا يبقى له فى سرك أثر ، حتى تكون بمنزلة من لا يعرف ذلك قط .

وقال رويم : معنى التوبة أن تتوب من التوبة ، معناه ، ما قالت رابعة : أستغفر الله من قلة صدقى فى قول أستغفر الله .

سئل الحسين المغازلى عن التوبة . فقال : تسألنى عن توبة الإنابة ، أو توبة الاستجابة ؟

فقال السائل : ما توبة الإنابة ؟

قال : أن تخاف من الله من أجل قدرته عليك .

قال : فما توبة الاستجابة ؟

قال : أن تستحى من الله لقربه منك .

قال ذو النون : توبة العام من الذنب ، وتوبة الخاص من الغفلة ، وتوبة الأنبياء من رؤية عجزهم عن بلوغ ما ناله غيرهم[٢] .

وقال النورى : التوبة أن تتوب من ذكر كل شىء سوى الله جل وعز .

قال إبراهيم الدقاق : التوبة أن تكون لله وجها بلا قفا كما كنت له قفا بلا وجه[٣] ، والله الموفق .

---

(١) يبدو أن معناه مواصلة الندم فلا خلاف مع الجنيد إذا الجهة منفكة .

(٢) محل نظر إلا أن يكون بالنسبة إلى بعضهم مع بعض فلم ينل أحد أفضل مما نالوه بحال .

(٣) معناه الاتجاه إلى الله بالمراقبة والخشية .

الباب السادس والثلاثون

قولهم فى الزهد

قال الجنيد : الزهد خلو الأيدى من الأملاك والقلوب من التتبع[1] .

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وسئل عن الزهد : ما كان ؟ فقال : هو أن لا تبالى مَن أكل الدنيا من مؤمن أو كافر .

قال يحيى : الزهد ترك اليد .

قال مسروق : الزاهد : الذى لا يملكه مع الله سبب .

سئل الشبلى عن الزاهد فقال : ويلكم أى مقدار لأقل من جناح بعوضة حتى يزهد فيها ؟

قال أبو بكر الواسطى : كم تصول بترك كنيف وإلى متى تصول بإعراضك عما لا يزن عند الله جناح بعوضة ؟

وسئل الشبلى عن الزهد : فقال : لا زهد فى الحقيقة لأنه إما أن يزهد فيما ليس له فليس ذلك بزهد ، أو يزهد فيما هو له ، فكيف يزهد فيه وهو معه وعنده ، فليس إلا ظلف النفس[2] وبذل ومواساة كأنه جعل الزهد ترك الشىء فيما ليس له وما ليس له لا يصح له تركه لأنه متروك وما هو له لا يمكنه تركه[3] .

الباب السابع والثلاثون

قولهم فى الصبر

قال سهل : الصبر انتظار الفرج من الله تعالى ، قال : وهو أفضل الخدمة وأعلاها .

---

(١) خلو الأيدى معناه الجود بما فى اليد وليس معناه انقطاع عن الدنيا .
(٢) إعراضها عن الشىء .   (٣) عبارة الشبلى أوضح من هذه .

وقال غيره : الصبر أن تصبر فى الصبر . معناه أن لا تطالع فيه الفرج .

قال بعضهم :

صابَرَ الصبرَ فاستغاثَ بهِ الصبْـ ـرُ فنادَى الصَّبورُ يا صَبرُ صبرَا

قال سهل فى قوله : (واستعينوا بالصبر والصلاة)(١) أى استعينوا بالله واصبروا على أمر الله ، واصبروا على أدب الله سبحانه(٢) .

قال سهل : الصبر مقدس تقدس به الأشياء .

قال أبو عمرو الدمشقى فى قوله تعالى : (مسنىَ الضرُّ)(٣) أى مسنى الضر فصبرنى ، لأنك أرحم الراحمين .

وقال غيره : مسنى الضر الذى تخص به أنبياءك وأولياءك بلا استحقاق منى ، لكن لأنك أرحم الراحمين .

وقال بعضهم : إنما جزع من أجله(٤) لا من أجل نفسه ، وذلك أن الألم استولى على بدنه ، فخاف زوال عقله . أنشدونا لأبى القاسم سمنون :

تجرَّعتُ مِن حالَيهِ نُعمَى وأبؤساً زَمانٌ إذا أمضى عزَالِيهِ احتسى

فكم غمرَةٍ قد جرَّعتنى كؤوسها فجرَّعتُها مِن بحر صبرى أكؤُسا

تدرَّعتُ صبرى والتحفتُ صرُوفَه وقلتُ لنفسى الصبرُ أو فاهلكى أسىً

خطوبٌ لوَ انَّ الشمَّ زاحمنَ خطبَها لساخت ولم تدركْ لها الكفُّ مَلمسا

الباب الثامن والثلاثون

قولهم فى الفقر

قال أبو محمد الجريرى : الفقر أن لا تطلب المعدوم حتى تفقد الموجود ، معناه : أن لا تطلب الأرزاق إلا عند خوف العجز عن القيام بالفرض .

---

(١) سورة البقرة آية : ٤٥ .
(٢) هذا إغراب لا إعراب .
(٣) سورة الأنبياء آية ٨٣ .
(٤) مرجع الضمير هنا غير واضح .

قال ابن الجلاء : الفقر أن لا يكون لك ، فإذا كان لك لا يكون لك ، على معنى قوله تعالى : (ويؤثرون عَلَى أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)[١] .

قال أبو محمد رويم بن محمد : الفقر عدم كل موجود ، وترك كل مفقود .

وقال الكتانى : إذا صح الافتقار إلى الله صح الغنى بالله ، لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلا بالآخر .

قال النورى : نعت الفقير السكون عند العدم والبذل والإيثار عند الوجود .

وقال بعض الكبراء : الفقير هو المحروم من الإرفاق ، والمحروم من السؤال ، لقوله عليه السلام « لو أقسم على الله لأبره »[٢] ، فدل أنه لا يقسم .

قال الدراج : فتشت كنف أستاذى أريد مكحلة ، فوجدت فيه قطعة (فضة) فتحيرت ، فلما جاء قلت إنى وجدت فى كنفك قطعة .

قال : قد رأيتها ؟ ردها ، ثم قال : خذها واشتر بها شيئا .

فقلت له : ما كان من أمر هذه القطعة بحق معبودك ؟

قال : ما رزقنى الله من الدنيا صفراء ولا بيضاء غيرها ، فأردت أن أوصى أن تشد فى كفنى ، فأردها إلى الله عز وجل .

سمعت أبا القاسم البغدادى يقول : سمعت الدورى يقول : كنا ليلة العيد مع أبى الحسن النورى فى مسجد الشونيزى ، فدخل علينا إنسان ، فقال للنورى : أيها الشيخ ، غداً العيد ، ما ذا أنت لابسه ؟ فأنشأ يقول :

قالوا غداً[٣] العيد ما ذا أنت لابسهُ … فقلتُ خِلعةَ ساقٍ عبدَه جُرعا
فقرٌ وصبرٌ هما ثوبايَ تحتهُما … قلبٌ يرى ربَّه الأعيادَ والجُمَعا
أحرى الملابسَ أن تلقَى الحبيبَ بها … يومَ التزاوُر فى الثوب الذى خَلَعا
الدهرُ لى مأتمٌ إن غِبتَ يا أملى … والعيدُ ما دُمتَ لى مَرأى ومُستمعا

(١) سورة الحشر آية ٩ .
(٢) أحمد ومسلم .
(٣) لو كانت (الغد) لاستقام الوزن .

سئل بعض الكبراء : ما الذى منع الأغنياء عن العود بفضول ماعندهم على هذه الطائفة ؟

فقال : ثلاثة أشياء ، أحدها : أن الذى فى أيديهم غير طيب ، وهؤلاء خالصة الله ، وما اصطنع إلى أهل الله فمقبول ولايقبل الله تعالى إلا الطيب .

والثانى : أنهم مستحقون فيحرم الآخرون بركة العود عليهم والثواب فيهم.

والثالث : أنهم مرادون بالبـــلاء فيمنعهم الحق عن العود عليهم ليتم مراده فيهم .

سمعت فارساً يقول : قلت لبعض الفقراء مرة ـ ورأيت عليه أثر الجوع والضر ـ لِمَ لاتسأل الناس فيطعموك ؟

قال : أخاف أن أسألهم فيمنعونى فلا يفلحوا ، وقد بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « لو صدق السائل ما أفلح من منعه »[1] .

الباب التاسع والثلاثون

قولهم فى التواضع[2]

سُئل الجنيد عن التواضع ، فقال : هو خفض الجناح ، وكسر الجانب[3] .

قال رويم : التواضع تذلل القلوب لعلام الغيوب .

---

(١) هذا الخبر أورده المناوى فى كنوز الحقائق وقال إنه من رواية العقيلى ولفظه لو صدق السائل ما أفلح من رده .

وهذه الإجابة التى أجاب بها الفقير مذهب فى حال معينة وإلا فإن السؤال ليس من شأن القوم .

(٢) التواضع من عمد التصوف وأسسه وقد كتب فيه السهروردى وأبو طالب والغزالى وغيرهم فأسهموا بذكر الأحاديث والآثار والأخبار .

(٣) فى « عوارف المعارف ولين الجانب » ص ١٧١ طبع سنة ١٩٣٩ .

قال سهل : كمال ذكر الله المشاهدة ، وكمال التواضع الرضا به .

وقال غيره : التواضع قبول الحق من الحق للحق[١] .

وقال آخر : التواضع الافتخار بالقلة ، والاعتناق للذلة ، وتحمل أثقال أهل الملة .

الباب الأربعون

قولهم فى الخوف

قال أبو عمرو الدمشقى : الخائف من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من العدو .

قال أحمد بن السيد حمدويه : الخائف الذى يخافه المخلوقات .

قال أبو عبد الله بن الجلاء : الخائف الذى تأمنه المخلوقات .

قال ابن خبيق : الخائف الذى يكون بحكم كل وقت ، فوقت تخافه المخلوقات[٢] ووقت تأمنه ؛ الذى تخافه المخلوقات ، هو الذى غلب عليه الخوف فصار خوفا كله ، فيخافه كل شىء ، كما قيل : من خاف الله خافه كل شىء ، والذى أمنته المخاوف هو الذى إذا طرقت المخاوف أذكاره لم تؤثر فيه لغيبته عنها بخوف الله تعالى ، ومن غاب عن الأشياء غابت الأشياء عنه .

أنشدنا .

يُحرقُ بالنارِ مَن يُحسُّ بها فمن هوَ النارُ كيف يحترقُ[٣]

(١) هذا مظهر من مظاهر التواضع وليس حقيقة وفى عدم قبوله إلا من الحق غرابة .

(٢) فى بعض المخطوطات المخوفات فى الموضعين وهو الناس لقوله والذى أمنته المخاوف .

(٣) فى بعض المخطوطات يحرق بالتخفيف فى الراء وهو الصواب من أجل الوزن (وهو من المنسرح) .

قال رويم : الخائف الذي لا يخاف غير الله ، معناه لا يخافه لنفسه ، وإنما يخافه إجلالا له والخوف للنفس خوف العقوبة .

قال سهل : الخوف ذكر ، والرجاء أنثى ، معناه منهما يتولد حقائق الإيمان.

وقال : إذا خاف العبد غير الله ، ورجا الله تعالى أمن الله خوفه ، وهو محجوب[1] .

الباب الحادي والأربعون

قولهم في التقوى

قال سهل : التقوى مشاهدة الأحوال على قدم الانفراد . معناه أن يتقى عما سوى الله سكونا إليه واستحلاء[2] له .

وفي قوله تعالى : (فاتقوا الله ما استطعتم)[3] أى بجميع استطاعتكم .

قال سهل : ما استطعتم إظهار الفقر والفاقة إليه .

قال محمد بن سنجان : التقوى ترك مادون الله .

قال سهل ، في قوله تعالى : (ولكن يناله التقوى منكم)[4] ، قال : هو التبرى وهو الإخلاص ، قال غيره : أصل التقوى مجانبة النهى ومباينة النفس فعلى قدر ما فاتهم من حظوظ أنفسهم أدركوا اليقين . أنشدونا للنوري :

إني اتقيتك لا تهابة من محاذرة المصير

---

(١) يبدو أن تأمين الله سبحانه خوفه لأنه رجا الله وهو محجوب لأنه خاف غير الله .

(٢) في النفس من هذه الكلمة وقفة برغم وجودها في سائر الأصول ولعلها (استجلاء) .

(٣) سورة التغابن الآية ١٦ التفسير غامض والمعروف في حدود استطاعتكم .

(٤) سورة الحج الآية ٣٧ .

إنى وكيف وأنت لى ... إلفُ يفوقُ مدى السمير
توفى السرائرَ سرَّها ... وتحوط مكنونَ الضمير
لكنْ أجِلُّك أن أجِـ ... ـلَ سواك للخطر الحقير(١)

الباب الثانى والأربعون

قولهم فى الإخلاص

قال الجنيد : الإخلاص ما أريد به الله من أى عمل كان(٢) .

قال رويم : الإخلاص ارتفاع رؤيتك من الفعل .

سمعت فارسا يقول : قدم على أبى بكر القحطبى قوم من الفقراء من أهل خراسان ، فقال لهم أبو بكر : بم يأمركم شيخكم ؟ يعنى أبا عثمان .

فقالوا : يأمرنا بكثرة الطاعة مع التزام رؤية التقصير فيها . فقال : ويحه ألا يأمركم بالغيبة عنها برؤية مبديها ؟

قيل لأبى العباس بن عطاء : ما الخالص من الأعمال ؟

قال : ما خلص من الآفات .

قال أبو يعقوب السوسى : الخالص من الأعمال ما لم يعلم به ملك فيكتبه ، ولا عدو فيفسده ، ولا النفس فتعجب به .

معناه انقطاع العبد إلى الله جل وعز ، والرجوع إليه من فعله ، والله الموفق .

---

(١) فى هذه الأبيات معنى (لو لم يخف الله لم يعصه) وهو قريب مما يروى عن رابعة :

ليس لى فى الجنان والنار حظ ... أنا لا أبتغى بحبى بديلا

وفى بعض النسخ المخطوطة توفى السرائر حقها بذل سرها .

(٢) لابد من تقييده بغير المحظور فهو لا يصلح شرعاً أن يراد به وجه الله .

الباب الثالث والأربعون

قولهم في الشكر

قال الحارث المحاسبي ، الشكر زيادة الله للشاكرين[١] .

معناه إذا شكر زاده الله توفيقاً فزاد شكراً[٢] .

قال أبو سعيد الخراز : الشكر الاعتراف للمنعم ، والإقرار بالربوبية .

قال أبو علي الروذبادي :

لو كلُّ جارحةٍ مني لها لغةٌ تثني عليكَ بما أوليتَ من حُسن
لكان مازاد شكري إذ شكرتُ به إليكَ أزيدُ في الإحسان والمنن

قال بعض الكبراء : الشكر هو الغيبة عن الشكر برؤية المنعم .

قال يحيى بن معاذ : لست بشاكر مادمت تشكر ، وغاية الشكر التحير . وذلك أن الشكر نعمة من الله يجب الشكر عليها ، وهذا لا يتناهى .

أنشدونا لأبي الحسن النوري :

سأشكر لا أني أجازيكَ مُنعماً بشكري ولكن كي يقال له الشكر

---

(١) الشكر سبب في زيادة الله لمن يشكره مصدقا للآية الكريمة « لئن شكرتم لأزيدنكم » .

(٢) كأنه يريد أن المزيد المعروف للشكر يدخل فيه التوفيق للشكر لأن الشكر نعمة ويتصل به قول الأول .

(إذا كان شكرى نعمة الله نعمة على له في مثلها يجب الشكر)
(فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله وإن مدت الأيام واتصل العمر)

اللهم اجعلنا من الشاكرين وامنحنا المزيد المتواصل لانحصى ثناء عليك وقد ردد المصنف هذا المعنى في رواياته هنا .

وأذكرُ أيامى لديك وحسنها ... وآخرُ ما يبقى على الشاكر الذكرُ

كان بعض الكبراء يقول فى مناجاته : اللهم إنك تعلم عجزى عن مواضع شكرك ، فاشكر نفسك عنى[1] .

الباب الرابع والأربعون

قولهم فى التوكل

قال سرى السقطى : التوكل الإنخلاع من الحول والقوة .

وقال ابن مسروق[2] . التوكل الاستسلام لجريان القضاء فى الأحكام .

قال سهل[3] : التوكل الاسترسال بين يدى الله تعالى .

قال أبو عبد الله القرشى : التوكل ترك الإيواء إلا إلى الله .

قال أبو أيوب : التوكل طرح البدن فى العبودية ، وتعلق القلب بالربوبية والطمأنينة إلى الكفاية .

قال الجنيد : حقيقة التوكل أن يكون لله تعالى كما لم يكن ، فيكون الله له كما لم يزل .

قال أبو سعيد الخراز : قامت الكفايات من السيد لأهل مملكته ، فاشتغلوا عن مقامات التوكل عليه ليكفيهم ، فما أقبح التقاضى بأهل الصفاء . جعل التوكل عليه لأهل الكفاية تقاضى القيام بالكفاية .

---

(١) فيه غاية الدلال ولعله حال .

(٢) توفى سنة ٢٩٩ وصحب السرى والمحاسبى وغيرهما وكان من كبار مشايخ القوم وعلمائهم .

(٣) هو أبو محمد سهل بن عبد الله التسترى المتوفى سنة ٢٨٣ وتقدم حديث عنه .

كما قال الشبلى : التوكل كدية حسنة[1] .

قال سهل : كل المقامات لها وجه وقفا غير التوكل ، فإنه وجه بلا قفا يريد توكل العناية لا توكل الكفاية ، وهو أن لا يطالبه بالأعواض .

وقال بعضهم : التوكل سر بين العبد وبين الله .

معناه ، كما قال بعض الكبراء ، حقيقة التوكل ترك التوكل ، وهو أن يكون الله لهم حيث كان لهم إذ لم يكونوا موجودين .

قال بعض الكبار لإبراهيم الخواص : إلى ماذا أدى بك التصوف ؟

فقال : إلى التوكل .

فقال : ويحك بعد أن تسعى فى عمران بطنك ؟

معناه إن توكلك عليه لأجل نفسك احتراز من مكروه يصيبها .

الباب الخامس والأربعون

قولهم فى الرضا

قال الجنيد : الرضا ترك الاختيار .

قال الحارث المحاسبى : الرضا سكون القلب تحت جريان الحكم .

قال ذو النون : الرضا سرور القلب بمر القضاء .

قال رويم : الرضا استقبال الأحكام بالفرح .

---

(١) من معانى الكدية فى القاموس ماجمع من طعام أو شراب ولعله يريد أنه تسول لأن التسول سبيل لما يجمع من الزاد .

والشبلى أبو بكر بن جحدر . صحب الجنيد وأقرانه وصار أوحد أهل الوقت علماً وحالا وتفقه على مذهب مالك وفاته سنة ٣٣٤ (الطبقات الكبرى للشعرانى ص ٨٩) .

قال ابن عطاء : الرضا نظر القلب إلى قديم اختيار الله للعبد ، فإنه اختار له الأفضل .

وقال سفيان عند رابعة : اللهم أرض عنى ، فقالت له : أما تستحى أن تطلب رضا من لست عنه براض ؟

قال سهل : إذا اتصل الرضا بالرضوان اتصلت الطمأنينة ، فطوبى لهم وحسن مآب .

يريد قوله عز وجل (رضى الله عنهم ورضوا عنه)[1] .

فمعناه الرضا فى الدنيا تحت مجارى الأحكام ، يورث الرضوان فى الآخرة بما جرت به الأقلام .

قال الله تعالى (وقضى بينهم بالحق ، وقيل الحمد لله رب العالمين)[2] ، فهو قول الفريقين من أهل الجنة والنار من الموحدين من أهلها ، فإن المشركين لا يؤذن لهم فى الحمد ، لأنهم محجوبون .

أنشدونا للنورى :

إن الرضا لمرارات تجرّعها عن القنوع إذا ما استعذب الكدر
عواقب أشهدت بعض الحضور فما يرعى التكثّر إلا ذاقة نزر[3]

الباب السادس والأربعون

قولهم فى اليقين

قال الجنيد : اليقين ارتفاع الشك .

---

(١) سورة المائدة الآية ١١٩ . (٢) سورة الزمر الآية ٧٥ .

(٣) النزر القليل ويستعمل فى ورم ضرع الناقة والمعنى أن الناقة إذا قل لبنها تطلع إلى الزيادة . ضربه مثلا للمتطلع إلى إحسان ربه المتطلب له ولو حركت الزاى بالفتح لكان أقرب إلى استقامة الوزن وهذا النظم من بحر البسيط .

قال النورى : اليقين هو المشاهدة .

قال ابن عطاء : اليقين ما زالت عنه المعارضة على دوام الوقت .

قال ذو النون : كل ما رأته العيون نسب إلى العلم ، وما علمته القلوب نسب إلى اليقين .

وقال غيره : اليقين عين القلب(١) .

قال عبد الله : اليقين اتصال البين وانفصال ما بين البين .

معناه قول حارثة كأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً ، اتصلت رؤيته بالغيب، وارتفع ما بينه وبين الغيب من الحجب .

قال سهل : اليقين المكاشفة ، كما قال : لو كشفت الغطاء ما ازددت يقيناً ، وبالله التوفيق .

الباب السابع الأربعون

قولهم فى الذكر

حقيقة الذكر : أن تنسى ما سوى المذكور فى الذكر ، لقوله تعالى : (واذكر ربك إذا نسيت)(٢) .

يعنى إذا نسيت ما دون الله فقد ذكرت الله .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « سبق المفردون » قيل : ومن المفردون يا رسول الله ؟ قال : « الذاكرون كثيراً والذاكرات »(٣) ، والمفرد الذى ليس معه غيره .

وقال بعض الكبار : الذكر طرد الغفلة ، فإذا ارتفعت الغفلة ، فأنت ذاكر وإن سكت .

(١) اليقين إبصار القلب ومشاهدته وكأنه عين يبصر بها .
(٢) سورة الكهف آية ٢٤ .
(٣) الترمذى والحاكم عن أبى هريرة إسناده صحيح .

وأنشدونا للجنيد :

ذكرتكَ لا أنى نسيتكَ لمحةً وأيسرُ ما فى الذكرِ ذكرُ لسانى

سمعت أبا القاسم البغدادى يقول : سألت بعض الكبار ، فقلت : ما بال نفوس العارفين تتبرم بالأذكار ، وتستروح إلى الأفكار ، وليس يفضى الفكر إلى مقر ، ولأذكارها أعواض تسر ؟

فقال : استصغرت ثمرات الأذكار ، فلم تحملها عن مكابدتها ، وبهرها شرف ما وراء الأفكار فنبهها عن ألم مجاهدتها .

معنى قوله : استصغرت ثمرات الأذكار ، لأنها كلها حظوظ النفس والعارفون قد أعرضوا عن النفوس وحظوظها ، وأما أفكارهم فإنها تسكون فى جلال الله وهيبته ومنته وإحسانه ، فهى تفكر فيما لله تعالى عليها إجلالا له وتعرض عما لها عند الله حرمة له ، فى قوله عليه السلام ، خبراً عن الله عز وجل : « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين »[1] .

معناه : من شغله مشاهدة عظمتى عن ذكر لسانه ، لأن ذكر اللسان كله مسألة .

---

(١) الترمذى والحاكم عن أبى هريرة والطبرانى فى الكبير عن أبى الدرداء والنظام كما فى الجامع الصغير « سبق المفردون المستهترون فى ذكر الله عز وجل يضع التذكر عنهم أثقالهم » .

والمفرد بالتشديد على المشهور ويجوز التخفيف يقال فرد وأفرد وفرد واستفرد بمعنى انفرد واعتزل الناس والمراد به كثير الذكر لله كما فى الحديث نفسه .

قال العراقى فى تخريج الاحياء إن هذا الحديث رواه البخارى فى التاريخ والبزاز فى المسند والبيهقى فى الشعب من حديث عمرو بن الخطاب . وفيه صفوان ابن أبى الصفا ذكره ابن حبان فى الضعفاء وفى الثقات أيضاً .

وأخرى : أن مشاهدة العظمة تحيره فتقطعه عن الذكر له ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا أحصى ثناء عليك »[(١)] .

أنشدونا للنوري :

أريدُ دوامَ الذكرِ من فرْطِ حُبهِ ... فيا عجباً من فرطِ الذكرِ في الوجدِ
وأعجبُ منه غيبةُ الوجدِ تارةً ... وغيبةُ عين الذكر في القربِ والبعدِ

قال الجنيد : من قال الله ، عن غير مشاهدة فهو مفترى[(٢)] . يدل على صحة قوله قول الله تعالى (قالوا نشهد إنك لرسول الله)[(٣)] ، ثم قال : (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) .

أكذبهم الله وإن كانت الكلمة صدقاً ، لأنها لم تكن عن مشاهدة .

وقال غيره : القلب للمشاهدة ، واللسان للعبارة عن المشاهدة ، فمن عبر عن غير مشاهدة فهو شاهد زور .

أنشدونا لبعض الكبار :

أنتَ المولَّهُ لى لا الذكرُ ولهنى ... حاشا لقلبي أن يعلق به ذكرى
الذكرُ واسطةٌ يحجبك عن نظرى ... إذا توشّحه من خاطرى فكرى[(٤)]

معناه الذكر صفة الذاكر ، فإن غبت في ذكرى كانت غيبتى في ، وإنما يحجب العبد عن مشاهدة مولاه أوصافه .

---

(١) رواه مسلم والأربعة من حديث في الدعاء هو « اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » ، راجع الجامع الصغير .

(٢) هكذا في سائر النسخ بإثبات الياء والصواب حذفها لأنه منقوص منكر يثبت فيه التنوين وتحذف الياء وصلا لالتقاء الساكنين .

(٣) المنافقون آية ١ .

(٤) لا يخلو البيتان من لحن للضرورة .

قال سرى السقطى ، صحبت زنجيا فى البرية ، فرأيته كلما ذكر الله تغير لونه وأبيض ، فقلت : يا هذا أرى عجبا ؛ إنك كلما ذكرت الله حالت لبستك وتغيرت صفتك ، فقال : يا أخى أما إنك لو ذكرت الله حق ذكره لحالت لبستك وتغيرت صفتك ، ثم أنشأ يقول :

ذكرنا وما كنا لننسى فنذكرُ ولكن نسيمُ القربِ يبدُو فيبهرُ
فأفنى به عنى وأبقى به له إذ الحقُّ عنهُ مخبرٌ ومعبرُ

أنشدونا لابن عطاء :

أرى الذكرَ أصنافاً من الذكر حشوها ودادٌ وشوقٌ يبعثان على الذكر
فذكرُ أليفُ النفس مُمتزجٌ بها تحلُّ محلُّ الرُّوح فى طرفها يسرى
وذكر يعزّى النفسَ عنها لأنه لها متلف من حيث تدرى ولا تدرى
وذكر علا عنى المُفارقَ والذرَى يجل عن الإدراك بالوهم والفكر
يراه لحاظُ العينِ بالقلبِ رؤيةً فيجفو عليه أن يشاهد بالذكر

صنف الذكر أصنافاً ، فالأول ، ذكر القلب ، وهو أن يكون المذكور غير منسى فيذكر ، والثانى : ذكر أوصاف المذكور ، والثالث ، شهود المذكور فيفنى عن الذكر ، لأن أوصاف المذكور تفنيك عن أوصافك فتفنى عن الذكر .

الباب الثامن والأربعون

قولهم فى الأنس

سئل الجنيد عن الأنس ما هو ؟

فقال : الأنس ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة .

معنى ارتفاع الحشمة : أن يكون الرجاء أغلب عليه من الخوف .

وسئل ذو النون عن الأنس ، فقال : هو انبساط المحبّ إلى المحبوب ، معناه ما قال الخليل عليه السلام ((أرنى كيف تحيى الموتى))[1] . وما قال الكليم عليه السلام (أرنى أنظر إليك) ، وقوله (لن ترانى)[2] . شبه العذر ، أى لا تطيق .

وسئل إبراهيم المارستانى عن الأنس ، فقال : هو فرح القلب بالمحبوب .

وسئل الشبلى عن الأنس ، فقال : هو وحشتك منه .

وقال ذو النون : أدنى مقام الأنس أن يلقى فى النار فلا يغيبه ذلك عمن أنس به .

وقال بعضهم : الأنس هو أن يستأنس بالأذكار فيغيب عن رؤية الأغيار .

أنشدونا لرويم :

شغلتَ قلبى بما لديك فما   ينفكُّ طُولَ الحياةِ مِن فِكرى
آنستَنى منكَ بالودادِ وقد   أوحَشتنى مِن جَميعِ ذا البشَر
ذِكرُكَ لى مؤنسٌ يُعارضنى   يُوعِدُنى عنكَ منكَ بالظفر
وحيثُ ما كنتَ يامَدَى هِممى   فأنتَ مِنى بمَوضعِ النظر

الباب التاسع والأربعون

قولهم فى القرب

سئل سرى السقطى عن القرب ، فقال : هو الطاعة[3] .

---

(١) سورة البقرة ٢٦٢ .   (٢) سورة الأعراف ١٤٣ .

(٣) هذه الأقوال التى أوردها تبدو أنها تعبر عن أحوال مختلفة فإنها تصور بعض صفات القرب ولا تحصره فى معناه .

وقال غيره : القرب أن يتدلل عليه ويتذلل له ، لقوله عز وجل (واسجد واقترب)[1] .

سئل رويم عن القرب فقال : إزالة كل معترض .

وسئل غيره عن القرب فقال : هو أن تشاهد أفعاله بك .

معناه أن ترى صنائعه ومننه عليك وتغيب فيها عن رؤية أفعالك ومجاهداتك .

وأخرى أن لاتراك فاعلا[2] ، لقوله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم (وما رَميتَ إذ رَميتَ ولكن الله رَمى) ، وقوله (فلمْ تقتلوهم ولكنّ الله قتلهم)[3] .

وأنشدونا للنورى :

أراني جمعي في فنائي تقربا ... وهيهات إلا منك عنك التقربُ

فما عنك لى صبرٌ ولا فيك حيلة ... ولامنك لى بد ولا عنك مهربُ

يقرب قومٌ بالرجا فوصلتهم ... فمالى بعيداً منك والكل يعطب

معناه أرانى حالى أن جمعى بك وفنائى عما سواك تقربٌ إليك[4] .

---

(١) سورة العلق ١٠ والآية « كلا لاتطعه واسجد واقترب » . والتدلل هنا بمعنى الاندماج فى الاستعطاف والطمع التام فى الإحسان كما يفعل المتدلل ودلالة الآية على الشق الثانى وهو التذلل بالذال واضحة وأما التدلل فلا يظهر من مدلولها فكل من السجود والاقتراب ضراعة تامة .

(٢) فسر شاهدة أفعال الله بأمرين أولهما رؤية صنائع الله وأفعاله وإحسانه من غير نظر إلى ما يصدر من العبد من عبادة وثانيهما أن لا يرى لنفسه فعلا بل يرى ما ظاهره أنه صادر منه صادراً من الله سبحانه وهنا مجال للزلقة .

(٣) فى سورة الأنفال ١٧ .

(٤) ففاعل أرانى هو الضمير الذى يعود إلى الحال وكل من الجمع والتقرب مفعولان لأرى وهذا الشرح يفيد أن عن بمعنى إلى وهو مقبول لولا السياق .

والجمع والفناء صفتان . ولا يكون القرب منك بصفتى بل بك يكون القريب إليك منك . ثم قال[1] : تقرب إليك أقوام بأفعالهم وطاعاتهم ، فوصلتهم تفضلا منك ، وليست لى أفعال أتقرب بها إليك وأنا أهليك شوقاً إلى القرب منك ، ولا سبيل لى إليه من حيث أنا .

أنشدونا للنورى أيضاً :

يا مَن أشاهـــده عنى فأحسبهُ ... منى قريباً وقد عزت مطالبهُ
إذا سمتْ نفسى سلوةً عنه ردّنى ... إليه شهودٌ ليس تفنى عجائبهُ

معنى السلوة الإياس ، يقول : كلما أيست من حيث أنا ، ردنى عن الإياس ما منه من الفضل الذى بدا به .

وقال الشبلى : قد تحيرت فيك ، خذ بيدى يا دليلا لمن تحير فيك .

الباب الخمسون

قولهم فى الانصال

معنى الانصال : أن ينفصل بسرّه عما سوى الله ، فلا يرى بسره[2] بمعنى التعظيم غيرَه ، ولا يسمع إلا منه .

وقال النورى : الاتصال مكاشفات القلوب .

ومشاهدات الأسرار مكاشفات القلوب ، كقول حارثة : كأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً .

---

(١) هذا تفسير البيت الثالث ولعله لحظ ذلك فى تعبيره ثم والبيت الثانى به اضح
(٢) فى بعض المخطوطات (لسره) باللام .

ومشاهدات الأسرار : كقوله عليه السلام : « اعبد الله كأنك تراه »[1] وكقول ابن عمر : كنا نتراءى الله فى ذلك المكان .

وقال بعضهم : الاتصال وصول السر إلى مقام الذهول .

معناه : أن يشغله تعظيم الله عن تعظيم من سواه .

وقال بعض الكبار : الاتصال : أن لا يشهد العبد غيرَ خالقه . ولا يتصل بسره خاطرٌ لغير صانعه .

قال سهل : حُرّكوا بالبلاء فتحركوا ، ولو سكنوا اتصلوا[2] .

الباب الحادى والخمسون

قولهم فى المحبة

قال الجنيد : المحبة ميل القلوب .

معناه : أن يميل قلبه إلى الله وإلى ما لله من غير تكلف .

وقال غيره : المحبة : هى الموافقة ، معناه[3] : الطاعة له فيما أمر ، والانتهاء عما زجر ، والرضا بما حكم وقدّر .

قال محمد بن على الكتانى ، المحبة الإيثار للمحبوب .

قال غيره : المحبة : إيثار ما تحت لمن تحب .

قال أبو عبد الله النباجى : المحبة : لذة فى المخلوق ، واستهلاك فى الخالق .

فمعنى الاستهلاك : أن لا يبقى لك حظ ، ولا يكون لمحبتك علة ، ولا تكون قائماً بعلة .

---

(١) ورد هذا فى تفسير الإحسان من حديث جبريل وهو فى الصحيحين .

(٢) يريد معنى التسليم والاستسلام التام .

(٣) فى بعض المخطوطات معناها .

قال سهل : من أحب الله فهو العيش ، ومن أحب فلا عيش له .

معنى هو العيش أنه يطيب عيشه ، لأن المحب يتلذذ بكل ما يرد عليه من المحبوب من مكروه أو محبوب ، ومعنى لا عيش له لأنه يطلب الوصول إليه ويخاف الانقطاع دونه(١) فيذهب عيشه .

وقال بعض الكبار : المحبة لذة ، والحق لا يتلذذ به ، لأن مواضع الحقيقة دهش واستيفاء وحيرة .

فحبة العبد لله تعظيم يحل الأسرار ، فلا يستجيز تعظيم سواه ، ومحبة الله للعبد : هو أن يبليه به فلا يصلح لغيره(٢) .

وهو معنى لا يصلح لغيره : أن لا يكون فيه فضل لمراقبة الأغيار ومراعاة الأحوال .

قال بعضهم : المحبة على وجهين : محبة الإقرار ، وهو للخاص والعام ، ومحبة الوجد من طريق الإصابة ، فلا يكون فيه رؤية النفس والخلق ، ولا رؤية الأسباب والأحوال ، بل يكون مستغرقاً فى رؤية ما لله وما منه .

أنشدونا لبعضهم(٤) :

أحبك حبين حب الهوى وحباً لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى فشغلى بذكرك عمن سواكا

---

(١) فى نسخة أخرى عنه وإجمال المعنى أن محب الله فى أنعم عيش برضاه على أنه منغص بخوف الانقطاع وفى هذا المعنى قول الأول :

وما فى الأرض أشقى من محب وإن وجد الهوى حلو المذاق

الأبيات .

(٢) يبدو أنه من أبلى الثوب أخلقه والمراد الانهماك فى العبادة إلى حد الإنهاك .

(٣) سورة طه آية ٤٣ .

(٤) هى رابعة العدوية .

وأما الذى أنتَ أهلٌ له فلستُ أرى الكونَ حتى أراكا
فما الحمد فى ذا ولا ذاك لى ولكنْ لك الحمدُ فى ذا وذاكا

قال ابن عبد الصمد : المحبة : هى التى تعمى وتصم ؛ تعمى عما سوى المحبوب فلا يشهد سواه مطلوباً .

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « حبك الشىء يعمى ويصم »[1] . وأنشد :

أصَمّنى الحبُّ إلا عن تسامره فمن أرى حبّ حب يورثُ الصمَما ؟
وكفُّ طرْفى إلا عن رعايته والحبُّ يُعمى وفيه القتلُ إن كتما ؟

وأنشد أيضاً :

فرْط المحبةِ حالٌ لا يقاومها رأىُ الأصيل إذا محذورُه قهرا
يَلذ إن عدلت منه قوارعهُ وإن تزيّد فى تعديلِه بَهرا

(فصل) إن للقوم عبارات تفردوا بها ، واصطلاحات فما بينهم لا يكاد يستعملها غيرهم ، نخبر ببعض ما يحضر ، ونكشف معانيها بقول وجيز .

وإنما نقصد فى ذلك إلى معنى العبارة دون ما تتضمنه العبارة ، فإن مضمونها لا يدخل تحت الإشارة فضلا عن الكشف ، وأما كنه أحوالهم فإن العبارة عنها مقصورة وهى لأربابها مشهورة .

---

(١) رواه أحمد والبخارى فى تاريخه وأبو داود بإسناد ضعيف عن أبى الدرداء ورواه الخرائطى فى اعتلال القلوب عن أبى برزة ورواه ابن عساكر عن أبى أنيس بإسناد حسن والحديث والله أعلم خبر يراد به التحذير من اتباع الهوى وحب النفس إلى درجة الاسترسال فى رغباتها .

الباب الثانى والخمسون

قولهم فى التجريد والتفريد

فمعنى التجريد : أن يتجرد بظاهره من الأعراض ، وبباطنه عن الأعراض ، وهو ألا يأخذ من عرض الدنيا شيئاً ، ولا يطلب على ما ترك منها عوضاً من عاجل ولا آجل ، بل يفعل ذلك لوجوب حق الله تعالى لا لعلة غيره ، ولا لسبب سواه ، ويتجرد بسره عن ملاحظة المقامات التى يحلها ، والأحوال التى ينازلها ، بمعنى السكون إليها والاعتناق لها .

والتفريد : أن يتفرد عن الأشكال ، وينفرد فى الأحوال ، ويتوحد فى الأفعال ، وهو أن تكون أفعاله لله وحده ، فلا يكون فيها رؤية نفس ، ولا مراعاة خلق ، ولا مطالعة عوض ، ويتفرد فى الأحوال عن الأحوال ، فلا يرى لنفسه حالا ، بل يغيب برؤية محوّلها عنها ، ويتفرد عن الأشكال ، فلا يأنس بها ، ولا يستوحش منها .

وقيل : التجريد أن لا يملك ، والتفريد أن لا يُملك .

أنشدونا لعمرو بن عثمان المكى :

تفرّدَ بالله الفـــريدِ فريد ... فظلّ وحيداً ، والمشوقُ وحيدُ
وذاك لأن المُفرَدين رأيتهمُ ... على طبقاتٍ ، والدنوُّ بعيدُ
فمن مفردٍ يسمو بهمة قلبهِ ... عن الملك جميعاً فهو عنه يحيدُ
وأدمنَ سَيْراً فى السموِّ توحدّاً ... وكلٌّ وحيدٍ بالبلاء فريدُ
وآخرُ يسمو فى العلوِّ تفردًا ... عن النفس وَجداً فهيَ منه تبيدُ
وآخرُ مفـكرٌ من الأسرِ بالفنا(١) ... فأصبح حَلواً واجتباهُ ودودُ

---

(١) فى بعض المخطوطات مغلوب من الأسر وفى أخرى والفنى بدل بالفنا والذى بالأصل أصح .

فالذى أدمن سيراً فى السمو متوحد بالبلاء ، لأنه لا سبيل له إلى ما يطلبه ولا يساكن شيئاً دونه ، والذى تفرّد عن النفس وجداً ، فلا يحس بالبلاء والذى فكّ من أسر النفس بالفناء عنها هو المجتبى المقرّب المتفرد بالحقيقة .

الباب الثالث والخمسون

قولهم فى الوجد

ومعنى الوجد : هو ما صادف القلب : من فزع ، أو غم ، أو رؤية معنى من أحوال الآخرة ، أو كشف حالة بين العبد والله عز وجل .

قالوا : وهو سمع القلوب وبصرها ، قال الله تعالى : (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوبُ التى فى الصدور)(١) .

وقال : (أو ألقى السمعَ وهو شهيد)(٢) .

فمن ضعف وجده تواجد ، والتواجد ظهور ما يجد فى باطنه على ظاهره ومن قوى تمكن فسكن .

قال الله تعالى : (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودُهم وقلوبُهم إلى ذكر الله)(٣) .

قال النورى : الوجد لهيب ينشأ فى الأسرار ويسنح عن الشوق فتضطرب الجوارح طربا أو حزنا عند ذلك الوارد .

وقالوا : الوجد مقرون بالزوال ، والمعرفة ثابتة بالله تعالى لا تزول .

أنشدونا للجنيد :

الوجدُ يُطرب من فى الوجد راحتُه   والوجدُ عند حضور الحقّ مفقود

---

(١) سورة الحج آية ٤٦   (٢) سورة ق آية ٣٧   (٣) سورة الزمر آية ٢٣

قد كان يُطربنى وجدى فأشغلنى(١) عن رؤية الوجدِ ما فى الوجدِ موجودُ

وأنشدونا لبعض الكبار :

أبدى الحجابَ فذلّ فى سلطانه عزُّ الرسومِ وكلُّ معنى يحضر
هيهات يُدركُ بالوجود وإنما لهبُ التواجدِ رمز عجز يُقهر
لا الوجد يُدركُ غير رسم داثر والوجدُ يدثُرُ حين يبدو المنظر(٢)
قد كنتُ أطربُ للوجودِ مُروعاً طوراً يُغيبنى وطوراً أحضر(٣)
أفنى الوجودَ بشاهدٍ مشهودُهُ أفنى الوجودَ وكلُّ معنى يُذكَرُ

وقال بعضهم : الوجد بشارات الحق بالترقى إلى مقامات مشاهداته .

وأنشدونا لبعضهم :

من جاد بالوجد أحرى أن يجود بما يُفنى الوجودَ من الأفضالِ والمِنن
أيقنتُ حين بدا بالوجدِ يبعثنى إن الجوادَ به يُوفى على الحسَن

وللشبلى :

الوجدُ عندى جحودٌ ما لم يكن عن شهودى(٤)
وشاهدُ الحقِّ عندى يفنى شهودَ الوجود(٥)

---

(١) الصواب من جهة العربية شغلنى لأن هذا الفعل متعد بنفسه .
(٢) فى القاموس إن الدثور الدروس كالاندثار والنفس سرعة نسيانها والقلب إمحاء الذكر منه . ثم قال والداثر الهالك ومن ذلك يمكن فهم البيت .
(٣) فى بعض المخطوطات يحضر وما هنا أصح .
(٤) لو حذفت الياء لكان أفصح لما فيه من العموم .
(٥) فى بعض المخطوطات « يفنى » وهو أشبه .

الباب الرابع والخمسون

قولهم فى الغلبة

الغلبة حال تبدو للعبد لا يمكنه ملاحظة السبب ، ولا مراعاة الأدب ، ويكون مأخوذاً عن تمييز ما يستقبله . فربما خرج إلى بعض ما ينكر عليه من لم يعرف حاله ، ويرجع على نفس صاحبه إذا سكنت غلبات ما يجده ، ويكون الذى غلب عليه : خوف ، أو هيبة ، أو إجلال ، أو حياء ، أو بعض هذه الأحوال .

كما جاء فى الحديث عن أبى لبابة بن المنذر ، حين استشاره بنو قريظة ، لما استنزلهم النبى صلى الله عليه وسلم على حكم سعد بن معاذ ، فأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح ، ثم ندم على ذلك ، وعلم أنه قد خان الله ورسوله ، فانطلق على وجهه حتى ارتبط فى المسجد إلى عمود من عمده وقال : لا أبرح مكانى هذا حتى يتوب الله علىّ مما صنعت .

فهذا لما غلب عليه الخوف من الله عز وجل ، حال بينه وبين أن يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان هو الواجب عليه لقول الله عز وجل : (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول) .

وليس فى الشريعة ارتباط فى بالسوارى والعمد[1] .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم لما أن استبطأه : « أما لو جاءنى لأستغفرت له ، فأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه » . فلما علم الله صدقه ، وأن ذلك صدر عنه لغلبة الخوف عليه غفر له ، فأنزل الله توبته فأطلقه النبى صلى الله عليه وسلم .

(١) بلى أنه ليس هناك ما يمنع ذلك ولهذا لم ينكر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الارتباط وهذه القصة معروفة فى كتب السير فى غزوة الخندق .

فأبو لبابة رضى الله عنه ، لما أن أغلب عليه الخوف لم يمكنه ملاحظة السبب ، وهو استغفار الرسول صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى : (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم)(١) الآية ، ولم يمكنه مراعاة الأدب ، والأدب : أن يعتذر إلى من أذنب إليه وهو الرسول صلى الله عليه وسلم .

وكما غلب على عمر رضى الله عنه حمية الدين ، حين اعترض على رسول الله صلى الله عليه وسلم . لما أراد أن يصالح المشركين عام الحديبية ، فوثب عمر حتى أتى أبا بكر رضى الله عنه فقال : يا أبكر أليس هذا برسول الله ؟

قال : بلى .

قال : ألسنا بالمسلمين ؟

قال : بلى .

قال : أليسوا بالمشركين ؟

قال : بلى .

قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟

فقال أبو بكر : يا عمر إلزم غرزه ، فإنى أشهد أنه رسول الله .

فقال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله ، ثم غلب عليه ما يجد ، حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له مثل ما قال لأبى بكر ، وأجابه النبى صلى الله عليه وسلم ، كما أجابه أبو بكر ، حتى قال : « أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى » .

---

(١) سورة النساء آية ٦٤ وتمام الكلام الكريم (جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما) والذى يذكره المفسرون أن الآية نزلت فى منافق لم يرض حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خصومة بينه وبين يهودى .

فكان عمر يقول : فما زلت أصوم ، وأتصدق ، وأعتق ، وأصلي من الذى صنعت يومئذ ، مخافة كلامى الذى تكلمت به ، حتى رجوت أن يكون خيراً(١) .

وكاعتراضه على النبى صلى الله عليه وسلم(٢) ، حين صلى على عبد الله بن أبى ، قال عمر فتحولت حتى قمت فى صدره ، وقلت : يا رسول الله أتصلى على هذا ، وقد قال يوم كذا : كذا : يعدد أياماً له ، حتى قال له : « أخر عنى يا عمر ، إنى خيرت فاخترت » وصلى عليه فقال عمر : فعجب لى وجرأتى على رسول الله .

ومنه حديث أبى طيبة ، حين حجم النبى صلى الله عليه وسلم ، فشرب دمه وذلك محظور فى الشريعة ، ولكن فعله فى حال الغلبة ، فعذره النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال : « لقد احتظرت بحظائر من النار » .

فهذه كلها وأمثالها كثيرة تدل على أن حالة الغلبة حالة صحيحة ، ويجوز فيها ما لا يجوز فى حال السكون ، ويكون الساكن فيها بما هو أرفع منه فى الحال أمكن وأتم حالة ، كما كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

الباب الخامس والخمسون

قولهم فى السكر

وهو أن يغيب عن تمييز الأشياء ولا يغيب عن الأشياء . وهو أن لا يميز بين مرافقه وملاذه وبين أضدادها فى مرافقة الحق ، فإن غلبات وجود الحق تسقطه عن التمييز بين ما يؤلمه ويلذه .

---

(١) هذا الخبر أورده البخارى وأبو داود فى صلح الحديبية مع بعض تغيير لا يوجب اختلافا .

(٢) وذلك فى خبر أخرجه الخمسة إلا أبا داود وراجع تيسير الوصول ص ١٣٣ ج ١ .

كما روى فى بعض الروايات فى حديث حارثة أنه قال : استوى عندى حجرها ومدرها ، وذهبها وفضتها .

وكما قال عبد الله بن مسعود : ما أبالى على أى الحالين وقعت : على غنى أو فقر ، إن كان فقراً فإن فيه الصبر ، وإن كان غنى فإن فيه الشكر .

ذهب عنه التمييز بين الأرفق وضده ، وغلب عليه رؤية ما للحق من الصبر والشكر .

وأنشد بعضهم :

قد استولى على قلبى هواك ... وما لى فى فؤادى من سواك
فلو قطعتنى فى الحب إرباً ... لما حن الفؤاد إلى سواك

والصحو الذى هو عقيب السكر : وهو أن يميز فيعرف المؤلم من الملذ ، فيختار المؤلم من موافقة الحق ولا يشهد الألم بل يجد لذة فى المؤلم .

كما جاء عن بعض الكبار أنه قال : لو قطعنى البلاء إربا إربا ما ازددت لك إلا حبا حبا .

وعن أبى الدرداء أنه قال : أحب الموت اشتياقاً إلى ربى ، وأحب المرض تكفيراً لخطيئتى ، وأحب الفقر تواضعاً لربى .

وعن بعض الصحابة أنه قال : يا حبذا المكروهان : الموت والفقر .

وهذه الحالة أتم لأن صاحب السكر يقع على المكروه من حيث لا يدرى ، ويغيب عن وجود التكره ، وهذا يختار الآلام على الملاذ ، ثم يجد اللذة فيما يؤلمه ، لغلبة شهود فاعله .

والصاحى الذى تمته قبل نعت السكر ، ربما يختار الآلام على الملاذ لرؤية ثواب أو مطالعة عوض ، وهو متألم فى الآلام[1] ، ومتلذذ ، ثم الملاذ ، فهو نعت الصحو والسكر .

(١) فى بعض النسخ المخطوطة (من الآلام) وما هنا أقرب فى سبك الأسلوب .

وأنشدونا لبعض الكبار :

كفاك بأن الصحوَ أوجد أننى   فكيف بحال السكر والسكر أجدَرُ
فحالاك لى حالان صحوٌ وسكرةٌ   فلا زلتُ فى حالى أصحو وأسكرُ

معناه أن حالة التمييز إذا أسقط عنى مالى وأوجد مالك ، فكيف يكون حالة السكر وهو سقوط التمييز عنى ، ويكون الله هو الذى يصرفنى فى وظائفى ويراعينى فى أحوالى . وهاتان حالتان تجريان علىّ ، وهما لله تعالى لا لى ، فلا زلت فى هاتين الحالتين أبداً .

الباب السادس والخمسون

قولهم فى الغيبة والشهود

فمعنى الغيبة : أن يغيب عن حظوظ نفسه فلا يراها ، وهى أعنى الحظوظ ، قائمة معه موجودة فيه ، غير أنه غائب عنها بشهود ما للحق .

كما قال أبو سليمان الدارانى ، وبلغه أنه قيل للأوزاعى[1] : رأينا جاريتك الزرقاء فى السوق فقال أو زرقاء هى ؟

---

(١) عبد الرحمن بن عمر من الأوزاع . قرية بدمشق فقد ولد بها سنة ٨٨ هـ ثم تحول إلى بيروت فبقى بها إلى آخر حياته كان من مدرسة الحديث الفقهية يبغض الأخذ بالرأى . وقد هاجر إلى مالك وأخذ كل منهما عن الآخر وقد ظهر مذهبه فى الشام ثم انتشر بالأندلس بعد دمشق حتى منتصف القرن الثالث الهجرى تغلب عليه مذهب مالك بالمغرب ومذهب الشافعى بالشام .

وقد ذكره الشعرانى فى طبقات الصوفية ونقل من عباراته (تبارك من خلقك وجعلك تنظر بشحم وتسمع بعظام وتتكلم بلحم) وهـــذه العبارة فى الحقيقة =

فقال سليمان : انفتحت عيون قلوبهم ، وانطبقت عيون رؤوسهم .

أخبر أن غيبته عن زرقتها كانت مع بقاء لذة الحور فيه(١) بقوله أو زرقاء هى .

والشهود : أن يرى حظوظ نفسه بالله لا بنفسه .

ومعنى ذلك : أن يأخذ ما يأخذ بحال العبودية وخضوع البشرية لا للذة والشهرة .

وغيبة أخرى وراء هذه ، وهى أن غيب عن الفناء والفانى ، بشهود البقاء والباقى ، لا غير ، كما أخبر حارثة عن نفسه ، ويكون الشهود شهود عيان ، ويكون غيبته عما غاب غيبة شهود الضر والنفع ، لا غيبة استتار واحتجاب .

وأنشدونا للنورى :

شهدتُ ولم أشهدْ لحاظا لحظته   وحسبُ لحاظٍ شاهد غيرُ مُشهدِ

وغبت مُغيباً غاب للغيب غيبهُ   فلاح ظهورُ غيبة غيرُ مُفقدِ

وعبر عن الشهود بعض مشايخنا فقال: الشهود أن تشهد ما تشهد مستصغراً له معدوم الصفة ، لما غلب عليك من شاهد الحق كما جاء :

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطل   وكلُّ نعيم لا محالة زائل

= لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه . وكان يقول ليس ساعة من ساعات الدنيا إلا هى معروضة على العبد يوم القيامة يوماً يوماً وساعة وساعة .

ومن عباراته الكريمة لو قبلنا من الناس كل مايعرضون عليها لهنا فى أعينهم .

توفى رضى الله عنه سنة ١٥٧ هـ .

(١) لعله يريد أن الحديث حين جرى فى شأن الزرقة كان عما يقوله بحكم الغريزة فإن الحظوظ : كما قال — قائمة مع الصوفى ولكنه يغيب عنها فلا يشتغل بها .

وكما قال موسى عليه السلام : (إنْ هى إلا فِتنتكَ)(١) ، رأى السامرى معدوم الصفة فى شهود الحق . وأنشدونا للنورى :

تسترتُ عن دهرى بسيرِ همومهِ ... محيرَة فى قدر مَن جلّ عن قدْرى
فلا الدهرُ يدرى أننى عنه غائبٌ ... ولا أنا أدرى بالخطوب إذا تجرى
إذا كان كلى قائماً بوفائه ... فلستُ أبالى ما جَنيت يدَ الدهر

الباب السابع والخمسون

قولهم فى الجمع والتفرقة

أول الجمع جمع الهمة ، وهو أن تكون الهموم كلها هما واحداً .

وفى الحديث : « من جعل الهموم هما واحداً هم المعاد ، كفاه الله سائر همومه ، ومن تشعبت به الهموم لم يبال الله فى أى أوديتها هلك »(٢) .

وهذه حال المجاهدة والرياضة .

والجمع الذى يعنيه أهله هو أن يصير ذلك حالا له ، وهو أن لا تتفرق

(١) سورة الأعراف آية ١٥٥ (فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء) الآية فالضمير فى قوله هى يعود إلى مافعل السفهاء باعتبار معناه . والمعنى والله أعلم أن هذه المحنة التى وقع فيها السفهاء كانت فتنة منك بخلق الخوار فى العجل حتى فتن الضعفاء فعبدوه واعتصم الخلصاء بتوحيدك وعبادتك .

(٢) الذى رأيته فى هذا المعنى حديث « من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره وفرق عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله همه وحفظ عليه ضيعته وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة ! قال العراقى : إن هذا الحديث رواه ابن ماجه من حديث زيد ابن ثابت بسند جيد والترمذى من حديث أنس بسند ضعيف نحوه .

هومه ، فيجمعها تكلف العبد ، بل تجتمع الهموم فتصير بشهود الجامع لها هما واحداً ، ويحصل الجمع إذ كان بالله وحده دون غيره .

والتفرقة التى هى عقيب الجمع : هو أن يفرق بين العبد وبين همومه فى حظوظه ، وبين طالب مرافقه وملاذه ، فيكون مفرقاً بينه وبين نفسه ، فلا تكون حركاته لها ، وقد يكون المجموع ناظراً إلى حظوظه ، فى بعض الأحوال ، غير أنه ممنوع منها ، قد حيل بينه وبينها ، لا يتأتى له منها شىء ، وهو غير كاره لذلك ، بل مريد له ، لعلمه بأنه فعل الحق به واختصاصه له ، وجذبه إياه مما دونه .

سئل بعض الكبار عن الجمع : ما هو ؟

فقال : جمع الأسرار بما ليس منه بد ، وقهرها فيه ، إذ لا شبه له ولا ضد .

وقال غيره : جمعهم به حين وصلهم بالقصور عنه ، وفرقهم عنه حين طلبوه بما منهم ، فسنح التشتيت لارتياده بالأسباب ، وحصل الجمع حين شاهدوه فى كل باب .

فالتفرقة التى عبر عنها : هى التى قبل الجمع . معناه : أن التقرب إليه بالأعمال تفرقة ، وإذا شاهدوه مقربا لهم فهو الجمع .

أنشدونا لبعض الكبار :

الجمع أفقدهم من حيثُ هم قِدماً ... والفرقُ أوجدهم حيناً بلا أثر
فأَمَت نفوسهمُ والفوتُ فقدهمُ ... فى شاهد جمعوا فيه عن البشر (١)
وجمعهم عن نعوت الرسم يحوجهم ... عما يؤثره الطرين بالغير

(١) فى بعض النسخ (عن النشر) ولعلها أشبه .

وَالحينُ حالَ تلاشت فى قديمهم ... عن شاهدِ الجمعِ إضمارُ بلا صورُ
حتى توافى لهم فى الفرق ما عطفت ... عليهم منه حين الوقت فى الحضر
فالجمعُ غيبتهمُ والفرقُ حضرتهمُ ... والوجدُ والفقدُ فى هذين بالنظر

معنى قوله : الجمع أفقدهم من حيث هم : أى علمهم بوجودهم للحق فى علمه بهم : أفقدهم من الحين الذى صاروا موجودين له ، فجمل الجمع حالة العدم ، حيث لم يكن إلا علم الحق بهم والفرق : حالة ما أخرجهم من العدم إلى الوجود .

قوله : فاتت نفوسهم : أى رأوها حين الوجود ، كما كانوا إذ هم نقود ، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، ولا يتغير علم الله فيهم .

وجمعهم : هو أن يمحوهم عن نعوت الرسم ، وهى أفعالهم وأوصافهم ، فى أنها لا تؤثر أثر تلوين وتغيير ، بل تكون على ما علم الله جل وعز ، وقدر وحكم ، فتلاشت حالهم حين وجودهم فى قديم العلم إذ كانوا معدمين لا موجودين مصورين ، وإذا أوجدهم أجرى عليهم ما سبق لهم منه .

فالجمع : أن يغيبوا عن حضورهم ، وشهودهم إياهم متصرفين .

والفرق : أن يشهدوا أحوالهم وأفعالهم .

والوجد والفقد : حالتان متغايرتان لهم لا للحق تعالى .

قال أبو سعيد الخراز : معنى الجمع : أنه أوجدهم نفسه فى أنفسهم ، بل أعدمهم وجودهم لأنفسهم عند وجودهم له .

معناه قوله : « كنت له سمعاً وبصراً ويداً فبى يسمع وبى يبصر » الخبر .

وذلك أنهم كانوا يتصرفون بأنفسهم لا لأنفسهم ، فصاروا متصرفين للحق بالحق .

الباب الثامن والخمسون

قولهم فى التجلى والاستتار

قال سهل : التجلى على ثلاثة أحوال :

تجلى ذات ، وهى المكاشفة ، وتجلى صفات الذات ، وهى موضع النور . وتجلى حكم الذات ، وهى الآخرة وما فيها .

معنى قوله : تجلى ذات ، وهى المكاشفة ، كشوف القلب فى الدنيا ، كقول عبد الله بن عمر : كنا نتراءى الله فى ذلك المكان ، يعنى فى الطواف وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « اعبد الله كأنك تراه »(١) . وكشوف العيان فى الآخرة .

ومعنى قوله : تجلى صفات الذات ، وهى موضع النور : هو أن تتجلى له قدرته عليه ، فلا يخاف ، وكفايته له فلا يرجو سواه .

وكذلك جميع الصفات ، كما قال حارثة : وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً كأنه تجلى له كلامه فى أخباره فصار الخبر له كالمعاينة .

وتجلى حكم الذات : يكون فى الآخرة : فريق فى الجنة وفريق فى السعير .

قال بعض الكبار : علامة تجلى الحقّ الأسرار : هو أن لا يشهد السرّ ما يتسلط عليه التعبير أو يحويه الفهم ، فمن عبر أو فهم فهو خاطر استدلال لا ناظر إجلال .

معناه : أن يشهد ما لا يمكنه العبارة عنه : أى التعبير عنه : لأنه لا يشهد

(١) ابن نعيم فى الحلية عن زيد بن أرقم والطبرانى فى الكبير عن أبى الدرداء وفى حديث الصحيحين « الإحسان أن تعبد كأنك تراه » وكلها أحاديث طويلة أطولها حديث جبريل فى كتاب الإيمان .

إلا تعظيما وهيبة ، فيمنعه ذلك عن تحصيل ما شاهد من الحال ، وأنشدونا لبعضهم .

إذا ما بدت لى تعاظمتها فأصدر فى حال من لم يرد
أجده إذا غبت عنى به وأشهد وجدى له قد فقد
فلا الوصول يشهدنى غيره ولا أنا أشهده منفرد
جمعت وفرقت عنى به ففرد التواصل مثنى العدد

معناه : إذا بدت الحقيقة غلب على التعظيم ، فأغيب فى شاهد التعظيم عن شهود التحصيل ، فأكون كمن لم يبد له ، وإنما يكون وجودى له إذا غبت عنى ، وإذا غبت فقد وجودى ؛ فحالة الوصل هو فنائى عنى : لا يشهدنى غيره ، وحالة الانفراد وقيامى بصفتى : يفنينى عن شهوده ، فكأن جمعى به فرقنى عنى ، فيكون حالة الوصل : هو أن يكون الله عز وجل مصرفى ؛ فلا أكون أنا فى أفعالى ، فهو : الله تعالى ، لا أنا .

كما قال الله تعالى لنبيه : (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)[1] .
وهذا لسان الحال ، ولسان العلم : أن الله مصرفى ، وأنا به متصرف ، فيكون المعبود والعبد .

وقال بعضهم: التجلى رفع حجبة البشرية ، لا أن تتلون ذات الحق جل وعز عن ذلك وعلا .

والاستتار : أن تكون البشرية حائلة بينك وبين شهود الغيب .

ومعنى رفع حجبة البشرية : أن يكون الله تعالى يقيمك تحت موارد ما يبدو لك من الغيب ، لأن البشرية لا تقاوم أحوال الغيب .

والاستتار الذى يعقب التجلى هو أن تستتر الأشياء عنك ، فلا تشاهدها .

(١) سورة الأنفال آية ١٧ .

كقول عبد الله بن عمر للذى سلم عليه وهو فى الطواف فلم يردّ عليه فشكاه فقال : إنا كنا نتراءى الله فى ذلك المكان ، أخبر عن تجلى الحقّ له بقوله : كنا نتراءى الله وأخبر عن الاستتار بغيبته عن التسليم عليه .

وأنشدونا لبعض الكبار :

سرائرُ الحقِّ لا تبدو لمحتجبٍ أخفاه عنكَ فلا تعرضْ لمخفيه
لا تُعنِ نفسكَ فيما لستَ تدركهُ حاشا الحقيقةِ أن تبدو فتؤويه

الباب التاسع والخمسون

قولهم فى الفناء والبقاء

فالفناء : هو أن يفنى عنه الحظوظ ، فلا يكون له فى شىء من ذلك حظ ، ويسقط عنه التمييز ، فناء عن الأشياء كلها شغلا بما فنى به كما قال عامر ابن عبد الله : ما أبالى : امرأة رأيت أم حائطاً .

والحقّ يتولى تصريفه ، فيصرّفه فى وظائفه وموافقاته ، فيكون محفوظاً فيما لله عليه ، مأخوذاً عمّا له وعن جميع المخالفات ، فلا يكون له إليها سبيل ، وهو العصمة وذلك معنى قوله صلى الله عليه وسلم « كنت له سمعاً وبصراً »(١) الخبر .

والبقاء الذى يعقبه هو أن يفنى عما له ويبقى بما لله .

قال بعض الكبار : البقاء مقام النبيين : أُلبِسوا السكينة ، لا يمنعهم ما حلّ بهم عن فرضه ، ولا عن فضله .

---

(١) معنى جملة من حديث قدسى شريف رواه البخارى فى كتاب الرقائق فى باب التواضع أوله (من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها) الحديث .

(ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء)[1] .

والباقى : هو أن تصير الأشياء كلها له شيئاً واحداً ، فتكون كل حركاته فى موافقات الحقّ دون مخالفاته ، فيكون فانيا عن المخالفات ، باقياً فى الموافقات .

وليس معنى أن تصير الأشياء كلها له شيئاً واحداً ، أن تصير المخالفات له موافقات فيكون ما نهى عنه كما أمر به ، ولكن على معنى : أن لا يجرى عليه إلا ما أمر به وما يرضاه الله تعالى ، دون ما يكرهه ، ويفعل ما يفعل لله لا لحظ له فيه فى عاجل أو آجل .

وهذا معنى قولهم : يكون فانياً عن أوصافه ، باقياً بأوصاف الحقّ ، لأن الله تعالى إنما يفعل الأشياء لغيره لا له ، لأنه لا يجر به نفعاً ولا يدفع به ضراً ، تعالى الله عن ذلك ، وإنما يفعل الأشياء لينفع الأغيار أو يضرّهم .

فالباقى بالحق : الفانى عن نفسه ، يفعل الأشياء لا لجر منفعة إلى نفسه ، ولا لدفع مضرّة عنها ، بل على معنى : أنه لا يقصد فى فعله جر المنفعة ودفع المضرّة ، قد سقطت عنه حظوظ نفسه ومطالبة منافعها ، بمعنى القصد والنية ، ولا بمعنى : أنه لا يجد حظا فيما يعمل مما لله عليه يفعله لله ، لا لطمع ثواب ولا لخوف عقاب ، وهما ، أعنى : الخوف والطمع : باقيان معه قائمان فيه ، غير أنه يرغب فى ثواب الله لموافقة الله تعالى ، لأنه رغّب فيه وأمر أن يسأل ذلك منه ، ولا يفعله للذة نفسه ويخاف عقابه إجلالاً له وموافقة له ، لأنه خوّف عباده ويفعل سائر الحركات لحظ الغير لا لحظ نفسه ، كما قيل : المؤمن يأكل بشهوة عياله .

---

(١) سورة المائدة آية ٥٤ .

أنشدونا لبعضهم :

أفناه عن حظه فيما ألمّ به فظلّ يبقيه فى رسم ليبديه
ليأخذ الرّسمَ عن رسم يكاشفهُ والسرُّ يطفحُ عن حقٍّ يراعيه

فجملة الفناء والبقاء : أن يفنى عن حظوظه ، ويبقى بحظوظ غيره .

فمن الفناء فناء عن شهود المخالفات والحركات بها قصداً وعزما ، وبقاء فى شهود الموافقات والحركات بها قصداً وفعلا ، وفناء عن تعظيم ما سوى الله ، وبقاء فى تعظيم الله تعالى .

ومن فناء تعظيم ما سوى الله ، حديث أبى حازم حيث قال : ما الدنيا ؟ أما ما مضى فأحلام ، وأما ما بقى فأمان وغرور ؛ وما الشيطان حتى يهاب منه ؟ لقد أطيع فما نفع ، وعصى فما ضرّ ، فكان كأنه لا دنيا عنده ولا شيطان .

ومن فناء الحظوظ ، حديث عبد الله بن مسعود حيث قال : ما علمت أن فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من يريد الدنيا حتى قال الله : (منكم مَن يريد الدنيا ومنكم مَن يريد الآخرة)[1] الآية . فكان فانياً عن إرادة الدنيا .

ومن ذلك حديث حارثة قال : عزفت نفسى عن الدنيا ، فكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً ، فنى عن العاجلة بالآجلة ، وعن الأغيار بالجبار .

وحديث عبد الله بن عمر ، سلم عليه إنسان وهو فى الطواف ، فلم يرد عليه ، وشكاه إلى بعض أصحابه ، فقال عبد الله : إنا كنا نترأى الله فى ذلك المكان .

ومنها حديث عامر بن عبد القيس قال : لأن تختلف فى الأسنة أحب

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٢ .

إلى من أجد ما تذكرون . يعنى فى الصلاة حتى قال الحسن : ما اصطنع الله ذلك عندنا .

وفناء هو الغيبة عن الأشياء رأساً .

كما كان فناء موسى عليه السلام ، حين تجلى ربه للجبل نخر موسى صعقاً فلم يخبر فى الثانى من حاله عن حاله ، ولا أخبر عنه مغيبة به عنها .

وقال أبو سعيد الخراز : علامة الفانى ذهاب حظه من الدنيا والآخرة إلا من الله تعالى ، ثم يبدو باد من « قدرة » الله تعالى فيريه ذهاب حظه من الله تعالى إجلالا لله ، ثم يبدو له باد من الله تعالى فيريه ذهاب حظه من رؤية ذهاب حظه ، ويبقى رؤية ما كان من الله لله ، ويتفرد الواحد الصمد فى أحديته ، فلا يكون لغير الله مع الله فناء ولا بقاء .

معنى ذهاب حظه من الدنيا مطالبة الأعراض ، ومن الآخرة مطالبة الأعواض فيبقى حظه من الله ، وهو رضاه عنه وقربه منه ، ثم يرد عليه حالة من إجلال الله تعالى : أن يقرب مثله ، أو يرضى عن مثله استحقاراً لنفسه ، وإجلالا لربه ، ثم ترد عليه حالة فيستوفيه حق الله تعالى فيغيبه عن رؤية صفته التى هى رؤية ذهاب حظه فلا يبقى فيه إلا ما من الله إليه ، ويفنى عنه ما منه إلى الله ، فيكون كما كان : إذ كان فى علم الله تعالى قبل أن يوجده ، وسبق له منه ما سبق من غير فعل كان منه .

وعبارة أخرى عن الفناء : أن الفناء هو الغيبة عن صفات البشرية بالحمل للوله : من نعوت الإلهية ، وهو أن يفنى عنه أوصاف البشرية التى هى : الجهل والظلم ، لقوله تعالى : (وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا)(١) .

---

(١) سورة الأحزاب آية ٧٢ .

ومن أوصافه الكنود والكفور ، وكل صفة ذميمة تفنى عنه ، بمعنى أن يغلب علمُه جهله ، وعدله ظلمَه ، وشكرُه كفرانه وأمثالها .

قال أبو القاسم فارس : الفناء : حال من لا يشهد صفته . بل يشهدها مغمورةً بمغيبها .

وقال : فناء البشرية ليس على معنى عدمها ، بل على معنى أن تفقد بلذة توفى على رؤية الألم ، واللذة الجارية على العبد فى الحال كصواحبات يوسف عليه السلام : (قطّعن أيديهن)[1] لفناء أوصافهم ، ولما ورد على أسرارهن من لذة النظر إلى يوسف ، بما غيبهن عن ألم ما دخل عليهن من قطع أيديهن .

ولبعض أهل العصر :

غابت صفاتُ القاطعاتِ أكفَّها ... فى شاهد هو فى البريةِ أبدعُ
فقَدَين عن أوصافهن فلم يكن ... من نعتهنّ تلذذ وتوجُّع
وقيامُ امرأة العزيزِ بيوسف ... يدُ نفسه ما كان يوسف يقطعُ

وأنشدونا فى الفناء :

ذكرْنا وما كنا لننسى فنذكرُ ... ولكنْ نسيمُ القرب يبدو فيبهرُ
فأفنى به عنى وأبقى به له ... إذا الحقُّ عنه مخبرٌ ومعبرُ

ومنهم من جعل هذه الأحوال كلها حالا واحدة وإن اختلفت عباراتها فجعل الفناء بقاء ، والجمع تفرقة ، وكذلك الغيبة والشهود ، والسكر والصحو .

وذلك أن الفانى عما له : باق بما للحق ، والباقى بما للحق : فإن عما له ، والمفارق مجموع لأنه لا يشهد إلا للحق ، والمجموع مفارق ، لأنه لا يشهد

(١) الجملة الشر فى آية ٣١ « فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن » .

إياه ولا الخلق ، وهو باق لدوامه مع الحق ، وهو جامعه به، وهو فان عما سواه ، مفارق لهم ، وهو غائب سكران لزوال التمييز عنه ، ومعنى زوال التمييز عنه هو ما قلناه بين الآلام والملاذ ، وبمعنى أن الأشياء تتوحد له فلا يشهد مخالفة ، إذ لا يصرِّفه إلا الحق فى موافقاته ، وإنما تميزُ بين الشيء وغيره ؛ فإذا صارت الأشياء شيئاً واحداً سقط التمييز .

وعبر جماعة عن الفناء بأن قالوا : يؤخذ العبد من كل رسم كان له ، وعن كل مرسوم ، فيبقى فى وقته بلا بقاء يعلمه ، ولا فناء يشعر به ، ولا وقت يقف عليه ؛ بل يكون خالقه عالما ببقائه وفنائه ، ووقته ، وهو حافظ له عن كل مفهوم .

واختلفوا فى الفانى : هل يرد إلى بقاء الأوصاف أم لا ؟

قال بعضهم : يرد الفانى إلى بقاء الأوصاف ، وحالة الفناء لا تكون على الدوام لأن دوامها يوجب تعطيل الجوارح عن أداء المفروضات وعن حركاتها فى أمور معاشها ومعادها .

ولأبى العباس بن عطاء فى ذلك كتاب سماه : كتاب عودة الصفات وبدئها .

وأما الكبار منهم والمحققون فلم يروا ردَّ الفانى إلى بقاء الأوصاف ، منهم الجنيد والخراز والنورى ، وغيرهم .

فالفناء : فضل من الله عز وجل ، وموهبة للعبد ، وإكرام منه له ، واختصاص له به .

وليس هو من الأفعال المكتسبة ، وإنما هو شىء يفعله الله عز وجل بمن اختصه لنفسه واصطنعه له ، فلو ردَّه إلى صفته كان فى ذلك سلب ما أعطى ، واسترجاع ما وهب . وهذا غير لائق بالله عز وجل ، أو يكون

من جهة البداء ، والبداء صفة مَن استفاد العلم ، وهذا من الله عز وجل منفى ؟ أو يكون ذلك غروراً وخداعا ، والله تعالى لايوصف بالغرور ، ولا يخادع المؤمنين ، وإنما يخادع المنافقين والكافرين .

وليس مقام الفناء يدرك بالاكتساب ، فيجوز أن يكتسب ضده ، فإن عورض بالإيمان والرجوع عنه ، وهو أفضل المراتب ، وبه يدرك جميع المقامات ، أجيب عنه أن الإيمان الذى يجوز الرجوع عنه هو الذى اكتسبه العبد من إقرار لسانه والعمل بأركانه ، ولم يخامر الإيمان حقيقة سره ، لا من قبل الشهود ، ولا من صحة العقود ، لكنه أقرّ بشىء ولا يدرى حقيقة ما أقرّ به .

كما جاء فى الحديث : إن الملك ليأتى العبد إذا وضع فى لحده فيقول : ما قولك فى هذا الرجل ؟

فيقول : سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته[١] .

فهذا شاك غير متيقن .

أو يكون أقر بلسانه وانطوى على تكذيبه ، كالمنافق الذى أقر بلسانه وكذبه بقلبه وأضمر خلافه ، ولكنه أقرّ بلسانه ولم يكذبه بقلبه[٢] ولا أضمر خلافه ، ولكن لم يقع له صحة ما أقر به اكتساباً ولا مشاهدة ، لم يكتسب تحقيقه من جهة العلم فتقوم له الدلائل على صحته ، ولا شاهدَ بقلبه حالا أزال عنه الشكوك ، وقد سبق له من الله الشقاء ، فاعترضت له شبهة من خاطر أو ناظر ففتنته فانتقل عنه إلى ضده .

---

(١) من حديث طويل أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان وقد أورده البغوى فى المصابيح فى باب إثبات عذاب القبر .

(٢) عبارة غير مستقيمة وهى كذلك فى الأصول التى رجعنا إليها وهل فيها سهو من المؤلف أو الناقل وأصلها « أو أقر بلسانه ولم يكذبه بقلبه) ومعنى هذه العبارة سليم واضح .

فأما من سبق له من الله الحسنى ، فإن الشبهات لا تقع له ، والعوارض تزول عنه إما اكتسابا من علم الكتاب والسنة ودلائل العقل ، فيزيل خواطر خواطر السوء عنه وترد شبهات الناظر له ، إذ لا يجوز أن يكون لما خالف الحق دلائل الحق ، فهذا لا تعترضه الشكوك .

أو يكون ممن قد وقع له صحة الإيمان ، ويرد الله تعالى عنه خواطر السوء باعتصامه بالجملة . ويرد عنه الله الناظر المشكك له لطفا به ، فلا يقابله فيسلم له صحة إيمانه وإن لم يكن عنده من البيان ما يحتاج مناظرة ناظره ولا ما يزيل خاطره .

أو يكون ممن وقع له صحة ما أقر به شهوداً أو كشوفاً ، كما أخبر حارثة عن نفسه من شهوده ما أقر به ، حتى حل ما غاب عنه من ذلك محل ما حضر وأكثر ، لأنه أخبر أنه عزف عن الشاهد فصار الغيب له شهوداً ، والشاهد غائباً ، كما قال الداراني : انفتحت عيون قلوبهم ، فانطبقت عيون رؤوسهم .

فمن وقع له صحة ما أقر به من هذه الجهة لم يرجع عن الآخرة إلى الدنيا ، ولا ترك الأولى للأدنى .

وهذا كله أسباب العصمة من الله له ، وتصديق ما وعد بقوله تعالى : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة)[1] .

فقد صح أن المؤمن الحقيقى لا ينتقل عن الإيمان ، لأنه موهبة له من الله جل وعز ، وعطاء وفضل واختصاص ، وحاشا الحق عز وجل أن يرجع فيما وهب ، أو يسترد ما أعطى .

وصورة الإيمان الحقيقى والرسمى فى الظاهر صورة واحدة ، وحقائقها مختلفة .

---

(١) سورة إبراهيم آية ٢٧ .

فأما الفناء وغيره من مقامات الاختصاص ، فإن صورها مختلفة وحقائقها واحدة ، لأنها ليست من جهة الاكتساب ، لكن من جهة الفضل .

وقول من قال : إن الفانى يردّ إلى أوصافه ، محال ، لأن القائل إذا أقرّ بأن الله تعالى اختص عبداً واصطنعه لنفسه ، ثم قال : إنه يرده ، فكأنه قال : يختص ما لا يختص ، ويصطنع ما لا يصطنع ، وهذا محال .

وجوازه من جهة التربية والحفظ عن الفتنة لا يصلح أيضاً ، لأن الله تعالى لا يحفظ على العبد ما آتاه من جهة السلب ، ولا بأن يردّه إلى الأوضع عن الأوقع ، ولو جاز هذا جاز أن لا يحفظ مواضع الفتن من الأنبياء بأن يردهم من رتبة النبوة إلى رتبة الولاية أو ما دونها : وهذا غير جائز .

ولطائف الله تعالى فى عصمة أنبيائه وحفظ أوليائه من الفتنة أكثر من أن تقع تحت الإحصاء والعدّ ، وقدرته أتم من أن تحصر على فعل دون غيره .

فإن عورض بالذى آتاه آياته (فَانْسَلَخَ مِنها)(١) . ولم يعترض ، لأن الذى انسلخ لم يكن قط شاهدَ حالا ، ولا وجدَ مقاما ، ولا كان مختصا قط ، ولا مصطنعاً ، بل كان مستدرَجاً مخدوعا ممكوراً به .

وإنما أجرى على ظاهره من أعلام المختصين ، وهو فى الحقيقة من المردودين ، وإنما حلى ظاهره بالوظائف الحسنة ، والأوراد الزكية ، وهو أعمى(٢) القلب محجوب السر ، لم يجد قط طعم الخصوص ، ولا ذاق لذة

(١) سورة الأعراف آية ١٧٥ وقد اختلف المفسرون فى الذى أتاه الله الآيات اختلافا كثيراً مما يدل على عدم ثبوت شىء فى الموضوع وإنما الثابت أن هناك رجلا سواء كان فى بنى إسرائيل أو العرب أو غيرهم علمه الله الدين فلم ينتفع به ولم يشكر نعمة الله فيه ونسأل الله العافية .

(٢) كانت كلمة أعمى محذوفة من نسخة الأصل هنا وهى مثبتة فى جميع النسخ الأخرى وهو الصواب كما هو واضح .

الإيمان ، ولا عرف الله قط من جهة الشهود ، كما أخبر الله تعالى عنه بقوله : (فكانَ مِنَ الغاوين) ، وكما أخبر عن إبليس بقوله : (وكانَ مِنَ الكافرين)[١] .

قال الجنيد : إن إبليس لم ينل مشاهدته فى طاعته ، وآدم لم يفقد مشاهدته فى معصيته[٢] .

وقال أبو سليمان[٣] : والله ما رجع من رجع إلا من الطريق ، ولو وصلوا إليه ما رجعوا عنه .

والفانى يكون محفوظا فى وظائف الحق كما قال الجنيد ـ وقيل له : إن أبا الحسين النورى قائم فى مسجد الشونيزى منذ أيام لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ، وهو يقول : الله الله ، ويصلى الصلوات لأوقاتها ، فقال بعض من حضره إنه صاح ـ فقال الجنيد : لا ، ولكن أرباب المواجيد محفوظون بين يدى الله فى مواجيدهم ، فإن رُدَّ الفانى إلى الأوصاف لم يُرَدّ إلى أوصاف نفسه ، ولكن يُقام مقام البقاء بأوصاف الحق .

وليس الفانى بالممْوق ولا المعتوه ، ولا الزائل عنه أوصاف البشرية فيصير مَلَكاً أو روحانياً ، ولكنه ممن فنى عن شهود حظوظه ، كما أخبرنا قبل .

والفانى أحد عينين[٤] : إما عين لم ينصب إماما ولا قدوة فيجوز أن

---

(١) سورة البقرة آية ٣٤ والآية فى تصوير إبليس وإبائه عن السجود لآدم (وإذ قلنا للملائكة أسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) .

(٢) هذا كلام رفيع قيم فلو أن إبليس نال المشاهدة فى طاعته لما نكص على عقبيه وآدم لو حرم المشاهدة لأحاطت به زلته ووقع فى التمادى صلوات الله عليه ويؤيد هذا الكلام خبر أبى سليمان .

(٣) أبو سليمان الدرانى سابق الذكر أو الكتاب .

(٤) تثنية عين والعين الذات .

يكون فناؤه عيبة من أوصافه ، فيُرى بين العتاهة وزوال العقل ، لزوال تميزه في مرافق نفسه وطلب حظوظه ، وهو على ذلك محفوظ في وظائف الحق عليه ، وقد كان في الأمة منهم كثير . .

منهم بلال الحبشي ، عبد كان للمغيرة بن شعبة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، نبه عنه النبي صلى الله عليه وسلم .

وأويس القرني في أيام عمر بن الخطاب نبه عليه عمر وعليّ ، رضي الله عنهما وخلق كثير .

إلى أن كان عليان المجنون ، وسعدون ، وغيرهما .

أو يكون إماما يقتدى به ويربط به غيره ممن يسومه ، فأقيم مقام السياسة والتأديب ، فهــذا ينقل إلى حالة البقاء فيكون تصرفه بأوصاف الحق لا بأوصاف نفسه .

والمتصرف بأوصاف الحق هو ما ذكرناه قبل .

وسئل الجنيد عن الفراسة فقال : هي مصادفة الإصابة .

فقيل له : هي للمتفرس في وقت المصادفة أو على الأوقات ؟

قال : لا ، بل على الأوقات ، لأنها موهبة ، فهي معه كائنة دائمة .

فأخبر أن المواهب تكون دائمة .

ومن يتبع كتب القوم وفهم إشاراتهم ، علم أن قولهم ما حكيناه عنهم ، فإن هذه المسألة وأمثالها ليست بمنصوصات ولا مفردات ، بل يُعْرَف ذلك من قولهم بفهم رموزهم ودرك إشاراتهم .

والله أعلم .

الباب الستون

قولهم فى حقائق المعرفة

قال بعض الشيوخ :

المعرفة معرفتان : معرفة حق ، ومعرفة حقيقة .

فمعرفة الحق : إثبات وحدانية الله تعالى على ما أبرز من الصفات .

والحقيقة : على أن لا سبيل إليها ، لامتناع الصمدية وتحقق الربوبية عن الإحاطة .

قال الله تعالى : (ولا يُحِيطُونَ بِهِ عِلماً)(١) ، لأن الصمد هو الذى لا تدرك حقائق نعوته وصفاته .

وقال بعض الكبراء : المعرفة إحضار السرّ بصنوف الفكر فى مراعاة مواجيد الأذكار على حسب توالى أعلام الكشوف .

ومعناه : أن يشاهد السرّ من عظمة الله وتعظيم حقّه وإجلال قدره ما تعجز عنه العبارة .

سئل الجنيد عن المعرفة فقال: هى تردّد السرّ بين تعظيم الحقّ عن الإحاطة ، وإجلاله عن الدرك .

وقد سئل عن المعرفة فقال : أن تعلم أن ما تصور فى قلبك فالحق بخلافه ، فيالها حيرة ، لا له حظ من أحد ، ولا لأحد منه حظ ، وإنما وجود يتردّد فى العدم ، لا تتهيأ العبارة عنه ، لأن المخلوق مسبوق ، والمسبوق غير محيط بالسابق .

---

(١) سورة طه آية ١٠٩ (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما) .

معنى : هو وجود يتردد فى العدم : يعنى صاحب الحال يقول : هو موجود عيانا وشخصا ، وكأنه معدوم صفة ونعتاً .

وعن الجنيد أيضاً قال : المعرفة : هى شهود الخاطر بعواقب المصير ، وأن لا يتصرف العارف بسرف ولا تقصير .

ومعناه : أن لا يشهد حاله ، وأن يشهد سابق علم الحق فيه وأن مصيره إلى ما سبق له منه ، ويكون مصرفا فى الخدمة والتقصير .

وقال بعضهم : المعرفة : إذا وردت على السر ضاق السر عن حملها كالشمس يمنع شعاعها عن إدراك نهايتها وجوهرها .

قال ابن الفرغانى : من عرف الرسم تجبر ، ومن عرف الوسم تحير ، ومن عرف السبق تعطل ، ومن عرف الحق تمكن ، ومن عرف المتولى تذلل .

معناه : من شاهد نفسه قائما بوظائف الحق أعجب ، ومن شاهد ما سبق له من الخير تحير ، لأنه لايدرى ما علم الحق فيه وبماذا جرى القلم به ، ومن عرف أن ما سبق له من القسمة لا يتقدم ولا يتأخر تعطل عن الطلب ، ومن عرف الله بالقدرة عليه والكفاية له تمكن فلا يضطرب عند المخوفات ولا عند الحاجات ، ومن عرف أن الله متولى أموره تذلل له فى أحكامه وأقضيته ؟؟ .

وقال بعض الكبار : إذا عرفه الحق إياه أوقف المعرفة حيث لا يشهد محبة ، ولا خوفاً ولا رجاء ، ولا فقراً ولا غنى ، لأنها دون الغايات والحق وراء النهايات .

معناه : أن لا يشهد هذه الأحوال ، لأنها أوصافه ، وأوصافه أقصر[1] من أن تبلغ ما يستحقه الحق من ذلك .

(١) فى بعض المخطوطات أقصد وما هنا أصح .

أنشدونا لبعض الكبار :

راعيتنى بالحفـــاظ حتى حميت عن مرتع أوبى[1]
فأنت عند الخصام عذرى وفى ظمائى فأنت ربى[2]
إذا امتطى العارفُ المعلَّى سرًّا إلى مَنظرٍ علىٍّ
وغاص فى أبحــــرٍ عزارٍ تفيض بالخاطرِ الوحى[3]
فضْ ختامَ الغيوب عما يحيى فؤاد الشجى الولىّ
من حار فى دهشةِ التلاقى أبصرتَه ميتاً كحىّ

يعنى : من حيرته دهشة ما يبدو له من الله من شاهد تعظيم الله وإجلاله أبصرته حيا ، كميت يفنى عن رؤية ما منه ولا يجد له متقدماً ولا متأخراً .

الباب الحادى والستون

قولهم فى التوحيد

أركان التوحيد سبعة :

إفراد القدم عن الحدث ، وتنزيه القديم عن إدراك المحدَث له ، وترك التساوى بين النعوت ، وإزالة العلة عن الربوبية ، وإجلال الحق عن أن تجرى قدرة الحدث عليه فتلونه ، وتنزيهه عن التمييز والتأمل ، وتبرئته عن القياس .

---

(١) الحفاظ المحافظة والمرتع موضع الرتع وهو المرعى وفيه مجاز والوبى الضار وفى بعض المخطوطات مربع بدل مرتع وما هنا أقرب .
(٢) الظمأ ممدوداً بفتحتين مصدر كالظمأ .
(٣) فى القاموس الشىء الوحى العجل المسرع .

قال محمد بن موسى الواسطى : جملة التوحيد : أن كل ما يتسع به اللسان أو يشير إليه البيان من تعظيم ، أو تجريد ، أو تفريد . فهو معلول ؛ والحقيقة وراء ذلك .

معناه : أن كل ذلك من أوصافك وصفاتك ، محدثة معلولة مثلك ، وحقيقة الحق : هو وصفه له .

وقال بعض الكبراء : التوحيد : إفرادك متوحداً ، وهو أن لا يشهدك الحق إياك .

قال فارس : لا يصح التوحيد ما بقيت عليك علقة من التجريد ، والموحد بالقول لا يشهد السر منفرداً به ، والموحد بالحال غائب بحاله عن الأقوال ، ورؤية الحق حال لا يشهده إلا كل ما له ، ولا سبيل إلى توحيده بلا قال ولا حال .

وقال بعضهم: التوحيد : هو الخروج عن جميعك بشرط استيفاء ما عليك ، وأن لا يعود عليك ما يقطعك عنه .

معناه : تبذل مجهودك فى أداء حق الله ، ثم تتبرأ من رؤية أداء حقه ويستوفيك التوحيد عن أوصافك ، فلا يعود عليك منها شىء ، فإنه قاطع لك عنه .

قال الشبلى : لا يتحقق العبد بالتوحيد حتى يستوحش من سره وحشة لظهور الحق عليه .

وقال بعضهم : الموحد من حال الله بينه وبين الدارين جميعاً ، لأن الحق يحمى حريمه .

قال جل وعز : (نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة)[١] .

فلا نردكم إلى معنى سوانا فى الدنيا والآخرة .

وعلامة الوجد : أن لايجرى عليه ذكر إخطار ما لا حقيقة له عند الحق ، فالشواهد عن سره مصروفة ، والأعواض عن قلبه مطرودة ، فلا شاهد يشهده ، ولا عوض يعبده ، ولا سر يطالعه ، ولا بر يلاحظه ، هو فى حقه عن حقه محجوب ، وفى حظه عن حظه مسلوب ، فلا نصيب له فى نصيب ، وهو مأسور فى أوفر النصيب ، والحق أوفر نصيب ، من فاته الحق فليس له شيء ، وإن ملك الكون . ومن وجد الحق فله كل شيء ، وإن لم يملك ذرة .

معناه : هو قائم بحقه محجوب عن رؤية قيامه بحقه ، وهو مسلوب عن حظوظه وهو يرى نفسه قائمة بحظوظها ، ونصيبه من الحق وجود الحق ، وهو فيه مأسور وليس له متقدم ولا متأخر ، وأنشدونا لبعضهم :

مواجيدُ حقّ أوجد الحق كلها   وإن عجزت عنها فهوم الأكابر

الباب الثانى والستون

قولهم فى صفة العارف

سئل الحسن بن على بن يزدانيار : متى يكون العارف بمشهد الحق ؟

قال : إذا بدا الشاهد ، وفنى الشواهد ، وذهب الحواس ، واضمحل الإخلاص .

معنى بدا الشاهد : يعنى شاهد الحق ، وهو أفعاله بك مما سبق منه إليك : من بره لك ، وإكرامه إياك : بمعرفته وتوحيده والإيمان به ، تفنى رؤية

(١) سورة فصلت آية ٣١ .

خلك منك رؤية أفعالك ، وبرك ، وطاعتك ، فترى كثير ما منك مستغرقا فى قليل ما منه ، وإن كان ما منه ليس بقليل وما منك ليس بكثير .

وفناء الشواهد : بسقوط رؤية الخلق عنك ، بمعنى الضر والنفع ، والذم والمدح ، وذهاب الحواس هو معنى قوله « فبى ينطق وبى يبصر » الحديث .

ومعنى اضمحل الإخلاص : أن لا يراك مخلصا ، وما خلص من أفعالك ، إن خلص ، ولن يخلص أبدا إذا رأيت صفتك ، فإن أوصافك معلولة مثلك .

سئل ذو النون عن نهاية العارف فقال : إذا كان كما كان حيث كان قبل أن يكون .

معناه : أن يشاهد الله وأفعاله دون شاهده وأفعاله .

قال بعضهم : أعرفُ الخلق بالله : أشد تحيرا فيه .

قيل لذى النون : ما أول درجة يرقاها العارف ؟

فقال : التحير ، ثم الافتقار ، ثم الاتصال ، ثم التحير .

الحيرة الأولى فى أفعاله به ونعمه عنده ، فلا يرى شكره يوازى نعمه ، وهو يعلم أنه مطالب بشكرها ، وإن شكر كان شكره نعمة يجب عليه شكرها ، ولا يرى أفعاله أهلا أن يقابله بها استحقاراً لها ، ويراها واجبة عليه ، لا يجوز له التخلف عنها .

وقيل قام الشبلى يوما يصلى ، فبقى طويلا ، ثم صلى ، فلما انفتل عن صلاته قال : يا ويلاه إن صليت جحدت ، وإن لم أصل كفرت .

أى جحدت عظم النعمة ، وكمال الفضل حيث قابلت ذلك بفعلى شكراً له مع حقارته .

ثم أنشد :

الحمــد لله على أننى كضفدع يسكن فى اليم
إن هى فاهت ملأت فمها أو سكتت ماتت من الغم

والحيرة الأخيرة : أن يتحير فى متاهات التوحيد ، فيضل فهمه ويخنس عقله فى عظم قدرة الله تعالى وهيبته وجلاله .

وقد قيل : دون التوحيد متاهات تضل فيها الأفكار .

سأل أبو السوداء بعض الكبار فقال : هل للعارف وقت ؟

قال : لا .

فقال : لِمَ ؟

قال : لأن الوقت فرجة تنفس عن الكربة ، والمعرفة أمواج تغط ، وترفع وتحط ، فالعارف وقته أسود مظلم .

ثم قال :

شرط العارف محو الكل منك إذا بدا المريد بلحظ غير مُطلع

قال فارس : العارف : من كان علمه حالة ، وكانت حركاته غلبة عليه .

سئل الجنيد عن العارف فقال : لون الماء لون الإناء .

يعنى أنه يكون فى كل حال بما هو أولى . فيختلف أحواله ، ولذلك قيل : هو ابن وقته .

سئل ذو النون عن العارف فقال : كان هاهنا فذهب .

يعنى أنك لا تراه فى وقتين بحالة واحدة ، لأن مصرفه غيره .

وأنشدونا لابن عطاء :

ولو نطقت فىَّ ألسن الدهر خبرت بأنى فى ثوب الصبابة أرفلُ
وما إن لها علم بقدرى وموضعى وما ذاك موهوم لأنى أنقل

وقال سهل بن عبد الله : أول مقام في المعرفة : أن يعطى العبد يقيناً في سره تسكن به جوارحه ، وتوكلا في جوارحه يسلم به في دنياه ، وحياة في قلبه يفوز بها في عقباه .

قلنا : العارف هو الذي بذل مجهوده فيما لله ، وتحقق معرفته بما من الله ، وصح رجوعه من الأشياء إلى الله .

قال الله تعالى : (ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق)[1] .

يجوز أن يكون بما عرفوا من الله من برّه وإحسانه ، بقصده إليهم ، وإقباله عليهم ، واختصاصه إياهم من بين ذويهم .

كما قال أبيّ بن كعب حين قال له النبي صلى الله عليه وسلم[2] : « إن الله أمرني أن أقرأ عليك » .

---

(١) سورة المائدة ٨٣ والآية نزلت في النصارى الذين هم على دين السيد المسيح الحق وقد وصفهم الله سبحانه بالانقياد للحق وأتباعه والانصاف بالشهادة لمحمد صلى الله عليه وسلم بالنبوة ، ونقل ابن كثير عن الطبراني بسنده إلى ابن عباس قال فيمن نزلت فيهم الآية كانوا كرّابين يعني فلاحين قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة فلما قرأ عليهم الرسول القرآن آمنوا وفاضت أعينهم ثم قالوا لن ننتقل عن هذا الدين ...

وهذا الصنف من النصارى هم الذين ذكرهم الله سبحانه في آيات كثيرة منها قوله سبحانه (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم) الآية . وراجع تفسير ابن كثير ومن هذا وأمثاله يظهر أن في تصوير الكلاباذي هنا شيئاً من التكلف في تطبيق الآية الكريمة على أن القرآن الكريم بحر لا ساحل له .

(٢) رواه الشيخان والترمذي عن أنس وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بن أبي كعب إن الله أمرني أن أقرأ عليك : لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب قال وسماني الله تعالى لك قال : نعم فبكى أبي رضي الله عنه .

فقال : يا رسول الله أو ذُكرتُ هناك ؟

قال : « نعم » .

فبكى أبى ، لم ير حالا يقابله بها ، ولا شكراً يوازى نعمه ، ولا ذكراً كما يستحقه ، فانقطع ، فبكى .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم لحارثة « عرفت فالزم » نسبه إلى المعرفة وألزمه إياها ولم يدله على عمل .

سئل ذو النون عن العارف فقال : هو رجل معهم ، بائن عنهم .

قال سهل : أهل المعرفة بالله : كأصحاب الأعراف ، يعرفون كلا بسيماهم ، أقامهم مقاما أشرف بهم على الدارين ، وعرفهم الملكين .

أنشدونا لبعضهم :

يا لهف نفسى على قوم مضوا لم أقض منهم وإن طاولتهم وطرى
م المخانيث فى كبر الملوك إذا أبصرتهم قلتُ : إضمار بلا صور

الباب الثالث والستون

قولهم فى المريد والمراد

المريد : مراد فى الحقيقة ، والمراد مريد : لأن المريد لله تعالى لا يريد إلا بإرادة من الله عز وجل تقدمت له .

قال الله تعالى : (يحبهم ويحبونه)[1] . وقال : (رضى الله عنهم ورضوا عنه)[2] .

---

(١) سورة المائدة آية ٥٤ .
(٢) سورة المائدة آية ١١٩ .

وقال : (ثم تاب عليهم ليتوبوا)(١) .

فكانت إرادته لهم سبب إرادتهم له ، إذ علة كل شيء صنعه ، ولا علة لصنعه ، ومن أراده الحق فمحال أن لا يريده العبد ، فجعل المريد مراداً والمراد مريداً ، غير أن المريد هو الذى سبق اجتهاده كشوفه ، والمراد هو الذى سبق كشوفه اجتهاده .

فالمريد : هو الذى قال الله تعالى عنه : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا)(٢) ، وهو الذى يريده الله تعالى ، فيقبل بقلبه ، ويحدث فيه لطفا يثير منه الاجتهاد فيه والإقبال عليه والإرادة له ، ثم يكاشفه الأحوال .

كما قال حارثة : عزفت نفسى عن الدنيا ، فأظمأت نهارى وأسهرت ليلى ثم قال : وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً .

فأخبر أن كشوف أحوال الغيب له كان عقيب عزوفه عن الدنيا .

والمراد : هو الذى يجذبه الحق جذبة القدرة ، ويكاشفه بالأحوال ، فيثير قوة الشهود منه اجتهاداً فيه وإقبالا عليه ، وتحملا لأثقاله .

كسحرة فرعون : لما كوشفوا بالحال فى الوقت ، سهل عليهم تحمل ما توعدهم به فرعون فقالوا : (لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض)(٣) .

وكما فعل بعمر بن الخطاب رضى الله عنه : أقبل يريد قتل رسول الله ، فأسره الحق فى سبيله .

---

(١) سورة التوبة آية ١١٧ .
(٢) سورة العنكبوت آية ٦٩ .
(٣) سورة طه آية ٧٢ .

وكقصة إبراهيم بن أدهم : خرج يطلب الصيد متلهيا ، فنودى : ما لهذا خلقت ، ولا بهذا أمرت ، مرتين ، ونودى فى الثالثة من قربوس سرجه فقال : والله لاعصيت الله بعد يومى هذا ما عصمنى ربى .

هذه جذبة القدرة : كوشفوا بالأحوال ، فأسقطوا عن النفوس والأموال .

أنشدنى الفقيه أبو عبد الله البرقى لنفسه :

مريد صفا منه سر الفؤاد ... فهام به السر فى كل واد
ففى أى واد سعى لم يجد ... له ملجأ غير مولى العباد
صفا بالوفاء وفى بالصفا ... ونور الصفاء سراج الفؤاد
أراد وما كان حتى أريد ... فطوبى له من مريد مراد

الباب الرابع والستون

قولهم فى المجاهدات والمعاملات

قال بعض الكبراء : التعبد إتيان ما وظف الله على شرط الواجب .

وشرط الواجب : الإتيان به على غير مطالبة عوض ، وإن شهدته فضلا بل يستوفيك عن رؤية الفضل .

والعوض : ما لله عليك فى العمل فى قوله : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم)[1] . قال : ليعبدوه بالرق لا بالطمع .

قيل لأبى بكر الواسطى : بأى شاهد ينبغى أن يكون العبد فى حركاته ما يسعى ؟

قال : بشاهد الفناء عن حركاته التى هى كائنة بغيره .

قال أبو عبد الله النباجى : استحلاء الطاعة ثمرة الوحشة عن الحق جل وعز .

---

(١) سورة التوبة آية ١١١ .

إذ لا يواصل الحق بها ولا يفاصل ، ولا يعتمد عليها اعتماد معول ، ولا يتركها ترك معاند ، بل يقيم وظائف الحق رقا وعبودية ، ويكون الاعتماد على ما في الأزل .

يريد باستحلاء الطاعة رؤيتها من نفسك ، دون مشاهدة فضل الله عليك في التوفيق في قول الله تعالى (ولذكر الله أكبر)(١) . قال أكبر من أن تبلغه أفهامكم ، وتحويه عقولكم ، ويجرى على ألسنتكم .

وحقيقة الذكر هو نسيان ما سواه فيه لقوله عز وجل : (واذكر ربك إذا نسيت)(٢) . وفي قوله تعالى : (كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية)(٣) أى الخالية عن ذكر الله ، لتعلموا أنكم بفضله نلتم لا بأعمالكم .

قال أبو بكر القحطبي ، نفوس الموحدين . نفوس سئمت من جميع ما ظهر من نعوتها وصفاتها ، واستقبحت كل باد بدا منها ، وانقطعت عن الشواهد ، والعوائد والفوائد وعجزت عن إظهار الدعوى بين يديه ، لما سمعت قوله عز وجل : (ولا يشرك بعبادة ربه أحداً)(٤) .

الشواهد : الخلق ، والعوائد : الأعواض ، والفوائد : الأعراض .

قال أبو بكر الواسطي : معنى التكبير في الصلاة ؟ كأنك تقول جلك

---

(١) سورة العنكبوت آية ٤٥ .

(٢) سورة الكهف آية ٢٥ ، والاستشهاد هنا لا يتفق مع سياق الآية الكريمة .

(٣) سورة الحاقة آية ٢٤ ، والأيام الخالية الماضية في الدنيا وغير ذلك تكلف بعيد عن المقام والله تعالى يكافىء بالعمل ويجازى عليه لا على الخلو منه وذلك أقرب إلى شطح بعض الصوفية الذى أشرنا إليه قبل وإن كان لا يوجب انحرافاً في الدين ولكنه مخالف للمتبادر من السياق والأسلوب اللغوى وفهم السلف والأئمة السابقين .

(٤) سورة الكهف آية ١١٠ .

عن أن تواصل بها ، أو تفاصل بتركها ، إذ الفصل والوصل ليس بحركات بل هو بما سبق فى الأزل .

قال الجنيد : لا يكون همك فى صلاتك إقامتها دون الفرح والسرور بالاتصال بمن لا وسيلة إلا إليه به .

قال ابن عطاء : لا يكونن همك فى صلاتك إقامتها دون الهيبة والإجلال لمن رآك فيها .

وقال غيره : معنى الصلاة . التجريد عن العلائق والتفريد بالحقائق .

والعلائق : ما سوى الله ، والحقائق : ما لله ومن الله .

وقال آخر الصلاة وصل .

قال سمعت فارسا يقول : معنى الصوم ، الغيبة عن رؤية الخلق برؤية الحق عز وجل ، لقوله تعالى فى قصة مريم : (إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً)(١) .

قال : لغيبتى عنهم برؤية الحق ، فلا أستجيز فى صومى أن يشغلنى عنه شاغل أو يقطعنى قاطع .

ويدل على قول النبى صلى الله عليه وسلم : « الصوم جنة » . أى حجاب عما دون الله فى قوله تعالى : « الصوم لى وأنا أجزى به »(٢) .

---

(١) سورة مريم آية ٢٦ وفى الاستشهاد تكلف أيضاً .

(٢) الحديث فى مسند أحمد وفى الصحيحين وفى عدة جوامع ومسانيد وبعدة روايات وجعل الجنة بمعنى الحجاب عما دون الله من تكلفاتهم كما تدل على ذلك سياقات الأحاديث وقد جاء فى رواية البيهقى جنة حصينة من النار وفى رواية البيهقى والنسائى جنة مالم يخرقها وفى رواية الطبرانى فى الأوسط مالم يخرقها بكذبة أو غيبة وفى رواية لأحمد والنسائى وغيرهما جنة من النار كجنة أحدكم من القتال وذلك كله يمنع تفسير المصنف ولا يتفق معه ، ومواقف المصنف هنا شاطحة جداً .

من حديث قدسى طويل فى الصحيحين وغيرهما .

قال بعض الكبار : أى أنا الجزاء به .

وقال أبو الحسن بن أبى ذر . أى معرفتى هى الجزاء له به ، قال وحسبه ذلك جزاء فما يبلغها شىء ولا يدانيها .

سمعت أبا الحسن الحسنى الهمدانى يقول : معنى قوله : الصوم لى ، كى ينقطع الأطماع عنه ، طمع العدو أن يفسده ، لأن ما لله فلا يطمع فيه العدو وطمع النفس أن تعجب به . فإنها إنما تعجب بمالها ، وطمع الخصوم فى الآخرة فإنهم يأخذون ما للعبد دون ما لله . هذا معنى ما فهمت من قوله .

قال بعضهم : جهد البلاء النظر إلى النفوس ، والاعتماد على الأفعال . فإن وكل إليها فهو درك الشقاء ، وفى درك الشقاء شماتة الأعداء .

أنشدونا للنووى :

أقول أكاد اليوم أن أبلغ المدى ... فيبعد عنى ما أقول أكاد
فما لى جهاد غير أنى مقصر ... وعجزى عن طول الجهاد جهاد
وإن رجائى عودة منك بالرضا ... وإلا فحظى فى المعاد بعاد

وأنشدونا لغيره :

هبنى أراعيك بالأذكار ملتمساً ... ما يبتغيه ذوو التلوين بالغير
فكيف لى بشهود منك يحملنى ... عن فتنة الوقت بل عن حجبة الأثر

يقول : إن طالعت فى أفعالى ومجاهداتى ثوابك عليها ، وهو الذى يطلبه أرباب المجاهدات وأصحاب المعاملات . فكيف أطالع شهود ما يحملنى عن خوف العاقبة من تغير الأحوال والأوقات ، وعن النظر إلى حركاتى ومجاهداتى . وهى التى تحجبنى عنك ؟

الباب الخامس والستون

حالهم فى الكلام على الناس(١)

قيل للنورى : متى يستحق الإنسان الكلام على الناس ؟

قال : إذا فهم عن الله جل جلاله صلح أن يفهم عباد الله ، وإذا لم يفهم عن الله كان بلاؤه عاما فى بلاده وعلى عباده .

قال السرى السقطى : إنى أذكر مجىء الناس إلى . فأقول اللهم هب لهم من العلم ما يشغلهم عنى . فإنى لا أحب مجيئهم إلى .

قال سهل بن عبد الله : أنا منذ ثلاثين سنة أكلم الله ، والناس يتوهمون أنى أكلمهم .

قال الجنيد للشبلى : نحن حبّرنا هذا العلم تحبيراً ، ثم خبأناه فى السراديب ، فجئت أنت فأظهرته على رؤوس الملأ .

فقال : أنا أقول ، وأنا أسمع ، فهل فى الدارين غيرى(٢) .

وقال بعض الكبار للجنيد : وهو يتكلم على الناس : يا أبا القاسم إن الله لا يرضى عن العالم بالعلم حتى يجده فى العلم فإن كنت فى العلم فالزم مكانك ، وإلا فانزل .

فقام الجنيد : ولم يتكلم على الناس شهرين ، ثم خرج فقال : لولا أنه بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « فى آخر الزمان يكون زعيم القوم أرذلهم »(٣) ما خرجت إليكم .

---

(١) الكلام على الناس تعليمهم ونشر العلم فى أوساطهم وههنا درس لأمثالنا ينبغى أن نفاد به ونسأل الله العافية ونسأله الحفظ والتوفيق .

(٢) هذا الخبر وما قبله يدخل عندنا فى دائرة الشطح الذى لا ينبغى إظهاره .

(٣) الذى رأيته فى هذا المعنى صحيح أخرجه الحاكم فى المستدرك وأبو نعيم

وقال الجنيد : ما تكلمت على الناس حتى أشار إلىّ وعلىّ ثلاثون من البدلاء : إنك تصلح أن تدعو إلى الله عز وجل .

وقيل لبعض الكبار : لم لا تتكلم ؟

فقال : هذا علم قد أدبر وتولى ، والمقبل على المدبر أدبر من المدبر .

قال أبو منصور البنجخينى لأبى القاسم الحكيم : بأى نية أتكلم على الناس ؟

فقال : لا أعلم للمعصية نية غير الترك .

واستأذن أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الرازى ، أبا حفص الحداد ، وكان تلميذه ، فى الكلام على الناس ، فقال له أبو حفص : وما يدعوك إليه ؟

فقال أبو عثمان : الشفقة عليهم ، والنصيحة لهم .

فقال : وما بلغ من شفقتك عليهم .

فقال : لو علمت أن الله يعذبنى بدل جميع من آمن به ويدخلهم الجنة ، وجدت من قلبى الرضا به .

فأذن له ، وشهد أبو حفص مجلسه ، فلما قضى أبو عثمان كلامه ، قام سائل ، فسبق أبو عثمان ، فأعطاه ثوباً كان عليه .

فقال أبو حفص : يا كذاب ، إياك أن تتكلم على الناس وفيك هذا الشىء .

فقال أبو عثمان : وما ذاك يا أستاذ ؟

قال : أما كان فيك من النصيحة لهم والشفقة عليهم أن تؤثرهم على نفسك بثواب السبق ، ثم تتلوهم .

سمعت فارساً يقول : سمعت أبا عمرو الأنماطى يقول : كنا عند الجنيد ،

= لفظه هكذا يكون فى آخر الزمان عباد وجهال ، وقراء فقه وفى حديث الطبرانى يكون فى آخر الزمان أمراؤهم شر عند الله من المجوس .

إذ مرّ به النورى فسلم، فقال له الجنيد وعليك السلام يا أمير القلوب، تكلم .

فقال النورى : يا أبا القاسم غششتهم فأجلسوك على المنابر ونصحتهم فرمونى فى المزابل .

فقال الجنيد : ما رأيت قلبى أحزن منه فى ذلك الوقت .

ثم خرج علينا فى الجمعة الأخرى فقال: إذا رأيتم الصوفى يتكلم على الناس فاعلموا أنه فارغ .

وقال ابن عطاء فى قوله تعالى : (وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً)(١) ، قال على مقدار فهومهم ومبلغ عقولهم .

وقال غيره فى قوله تعالى : (ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين)(٢) ، أى لو نطق بالمواجيد على أهل الرسوم ، يدل عليه قوله : (بلِّغْ ما أُنزلَ إليكَ مِن رَبِّكَ)(٣) . ولم يقل بلغ ما تعرفنا به إليك .

رأى الحسين المغازلى رويم بن محمد، وهو يتكلم على الناس فى الفقر ، فوقف عليه . وقال :

وَما تصنَعُ بالسَّيفِ إذا لمْ تكُ قتّالا
ألا ابتعْتَ بمـا حَلّيْـ ت هذا السيفِ خُلخَالا

عبر بعبارته عن حال ليس هو فيها :

قال بعض الكبار : من تكلم عن غير معناه فقد تجوّز فى دعواه ، قال الله تعالى : (كَمَثَلِ الحمارِ يحمِلُ أسفاراً)(٤) .

---

(١) سورة النساء آية ٦٣ .
(٢) سورة الحاقة آية ٤٤ وهذا التفسير متكلف بعيد عن السياق .
(٣) سورة المائدة آية ٦٧ .
(٤) سورة الجمعة آية ٥ .

الباب السادس والستون

فى توقى القوم ومجاهداتهم

ورث حارث المحاسبى من أبيه أكثر من ثلاثين ألف دينار ، فلم يأخذ منه شيئاً ، وقال : إنه كان يرى القدَر .

قال أبو عثمان : كنا فى دار أبى بكر بن أبى حنيفة مع أبى حفص ، فجرى ذكر صديق غائب عنا .

فقال أبو حفص : لو كان عندنا كاغَد (١) كتبنا إليه .

فقلت : ها هنا كاغد وكان أبو بكر قد خرج إلى السوق .

فقال أبو حفص : لعل أبا بكر قد مات ، ولم نعلم ، وصار الكاغد للورثة فترك الكتاب .

وقال أبو عثمان : كنت عند أبى حفص ، وبين يديه زبيب فأخذت زبيبة ووضعتها فى فمى ، فأخذ بحلقى وقال : يا خائن ، تأكل زبيبتى ؟ فقلت لثقتى بزهادتك فى الدنيا وعلمى بإيثارك أخذت الزبيبة ، فقال : يا جاهل تثق بقلب لا يملكه صاحبه ؟ ؟

سمعت كثيراً من مشايخنا يقولون : كان الشيوخ يهجرون الفقير لثلاث : إذا حج عن غيره بمال ، وإذا أتى خراسان ، وإذا دخل اليمن .

فقالوا : من أتى خراسان : لم يأته إلا للرفق وليس بها مباح ، فيطيب مطعمه .

وأما اليمن ، ففيه طرق إلى الفسق كثيرة .

وكان أبو المغيث لا يستند ولا ينام على جنبه ، وكان يقوم الليل ، وإذا غلبته عينه قعد ، ووضع جبينه على ركبتيه فيغفو غفوة .

---

(١) الكاغد بالفتح : القرطاس : معرب .

فقيل له : ارفق بنفسك .

فقال : والله ما رفق الرفيق بى رفقاً فرحت به ، أما سمعت سيد المرسلين : يقول : « أشد الناس بلاء : الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل »[١] .

قالوا : إن أبا عمرو الزجاجى أقام بمكة سنين كثيرة لم يحدث فى الحرم ، كان يخرج من الحرم للحدث ، ثم يعود إليه وهو على الطهارة .

قال سمعت فارساً يقول : كان أبو عبد الله المعروف بشكثل لا يكلم الناس ، وكان يأوى إلى الخرابات فى سواد الكوفة، وكان لا يأكل إلا المباح والقمامات ، فلقيته يوما فتعلقت به ، وقلت : سألتك بالله ألا أخبرتنى ما الذى منعك عن الكلام ؟

فقال : يا هذا ، الكون توهم فى الحقيقة، ولا تصحّ العبارة عما لا حقيقة له ؟ والحق تقصر عنه الأقوال دونه ؟ فما وجه الكلام ؟ وتركنى ومر .

قال : وسمعته يقول : سمعت الحسين المغازلى يقول : رأيت عبد الله القشاع ليلة قائما على شط دجلة ، وهو يقول : يا سيدى أنا عطشان ، يا سيدى أنا عطشان ، حتى أصبح ، فلما أصبح قال : يا ويلتى ، تبيح لى شيئا وتحول بينى وبينه ، وتحظر على شيئا وتخلى بينى وبينه ، فأيش[٢] أصنع ، ورجع ولم يشرب منه .

وسمعته يقول : سمعت بعض الفقراء قال : كنت سنة الهبير مع الناس فانفلت ثم رجعت ، فكنت أطوف بين الجرحى ، قال : فرأيت أبا محمد الجريرى ، وكان قد نيف على المائة .

(١) روى أحمد والبخارى والنسائى بأسانيدهم إلى سعد ورواه ابن حبان فى صحيحه عن أبى سعيد ورواه الطبرانى فى الكبير عن أخت حذيفة وهو مخرج فى كثير من السنن بأسانيد مختلفة وبعض زيادات تختلف عن بعض .

(٢) كلمة أيش سؤال بمعنى أى شىء وهى لهجة عامية مشهورة .

فقلت : يا شيخ ألا تدعو فيكشف ما ترى ؟

قال : قد فعلتُ ، قال : إنى أفعل ما أشاء ، فأعدت عليه ، فقال : يا أخى ليس هذا وقتُ الدعاء ، هذا وقتُ الرضا والتسليم .

فقلت : ألك حاجة ؟

فقال : أنا عطشان .

فجئته بماء ، فأخذه وأراد أن يشرب ، فنظر إلىّ فقال : هؤلاء عطاش وأنا أشرب هذا شربة ، فردّه علىّ ومات من ساعته ؟

قال : وسمعته يقول سمعت بعض أصحاب الجريرى يقول : مكثت عشرين سنة لا يخطر لى ذكر طعام حتى يحضر ، ومكثت عشرين سنة أصلى الفجر على طهور العشاء الآخرة ، ومكثت عشرين سنة لا أعقد مع الله عقداً ، مخافة أن يكذبنى على لسانى ، ومكثت عشرين لا يسمع لسانى إلا من قلبى ، ثم حالت الحال ، فمكثت عشرين سنة لا يسمع قلبى إلا من لسانى .

معنى قوله : لا يسمع لسانى إلا من قلبى ، أى لا أقول إلا من حقيقة ما أنا عليه ، وقوله لا يسمع قلبى إلا من لسانى ، أى حفظ علىّ لسانى كما قال : « فبى يسمع وبى يبصر وبى ينطق » .

قال : وسمعت بعض مشايخنا يقول : سمعت محمد بن سعدان يقول :

خدمت أبا المغيث عشرين سنة ، فما رأيته أسف على شىء فاته ، أو طلب شيئاً فقده .

وقيل : إن أبا السوداء وقف ستين وقفة .

وجعفر بن محمد الخلدى وقف خمسين وقفة .

وكان بعض المشايخ ، وأكثر ظنى أنه أبو حمزة الخراسانى ، حج عشر حجج عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وحج عن العشرة من أصحاب النبى

صلى الله عليه وسلم عشر حجج ، ثم حج عن نفسه حجة ، يتوسل بتلك الحجج إلى الله فى قبول حجته[1] .

الباب السابع والستون

فى لطائف الله للقوم وتنبيهه إياهم بالهاتف

قال أبو سعيد الخراز : بينا أنا عشية عرفة ، قطعنى قرب الله عز وجل عن سؤال الله ، ثم نازعتنى نفسى بأن أسأل الله تعالى ، فسمعت هاتفا يقول : أبعد وجود الله تسأل الله غير الله ؟

قال أبو حمزة الخراسانى : حججت سنة من السنين ، فبكنت أمشى ، فوقعت فى بئر ، فنازعتنى نفسى بأن أستغيث ، فقلت : لا والله لا أستغيث ، فما استتمت هذا الخاطر حتى مرّ برأس البئر رجلان ، فقال أحدهما الآخر : تعال حتى نطم[2] رأس هذا البئر من الطريق ، فأتوا بقصب وبارية ، وهممتُ أن أصيح ، ثم قلت : يامن هو أقرب إلىّ منهما ، وسكت حتى طموا ومضوا ، فإذا أنا بشىء قد تدلى برجليه فى البئر ، وهو يقول : تعلّق بى ، فتعلقتُ به فإذا هو سبع ، وإذا هاتف يهتف بى ، ويقول لى : يا أبا حمزة ، هذا حسن ، نجيناك من التلف فى البئر بالسبع ؟

قال : سمعت بعض أصحابنا يقول : قال أبو الوليد السقاء : قدّم إلىّ أصحابنا يومًا لبنا ، فقلت : هذا يضرّنى ، فلما كان يوم من الأيام دعوت الله تعالى . فقلت : اللهم اغفر لى ، فإنك تعلم أنى ما أشركت بك طرفة عين ، فسمعتُ هاتفًا يهتف بى ويقول : ولا ليلة اللبن ؟

---

(١) ياليت شعرى ما الداعى إلى الحج عن النبى صلى الله عليه وسلم والعشرة وهو أحوج ما يكون إلى عمله .

(٢) فى القاموس طم الركبة من بابى ضرب ونصر دفنها وسواها .

قال أبو سعيد الخراز : كنت فى البادية ، فنالنى جوع شديد ، فطالبتنى نفسى بأن أسأل الله طعاما ، فقلت : ليس هذا من فعل المتوكلين ، فطالبتنى نفسى بأن أسأل الله صبراً ، فلما هممت بذلك ، سمعت هاتفا يقول :

ويزعم أنه منـا قريبٌ   وإنا لا نضيِّـع من أتانا
ويسألنا القوى عجزًا وضعفًا   كأنا لا نراه ولا يرانا؟

ويشهد لصحة حال الهاتف ، ما حدثنا محمد بن محمد بن محمود قال : ح[1] نصر بن زكريا ، ح عمار بن الحسن ، ح سلمة بن الفضل ، ح محمد ابن إسحاق ، عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه ، عن عائشة ، قالت : لما أرادوا غسل النبى صلى الله عليه وسلم اختلفوا فيه ، فقالوا : والله ما ندرى أنجرد رسول الله من ثيابه كما نجرد موتانا ، أو نغسله وعليه ثيابه ، قالت : فلما اختلفوا ، ألقى الله عليهم السِّنة ، حتى ما بقى منهم أحد إلا وذقنه فى صدره . ثم كلمهم متكلم من ناحية البيت ، لا يدرون من هو : أن اغسلوا النبى وعليه ثيابه[2] .

الباب الثامن والستون

تنبيهه إياهم بالفراسات

قال أبو العباس بن المهتدى : كنت فى البادية ، فرأيت رجلا يمشى بين يدى حافى القدم ، حاسر الرأس ، ليس معه ركوة ، فقلت فى نفسى : كيف يصلى هذا الرجل ؟ ما لهذا طهارة ولا صلاة ، قال : فالتفت إلىّ فقال : (يعلمُ

---

(١) رمز عن حدثنا .

(٢) هـــذا الحديث فى سنن أبى داود بسنده إلى عائشة فى باب ستر الميت عند غسله .

ما فى أنفسكم فاحذروه)[١] . قال : فسقطتُ مغشيا علىّ ، قال : فلما أفقت استغفرت الله من تلك الرؤية التى نظرت بها إليه ، فبينا أنا أمشى فى بعض الطريق ، فإذا هو بين يدى ، فلما رأيته ، هبته وتوقفت ، فالتفت إلىّ ثم قرأ : (وهو الذى يَقبلُ التوْبةَ عن عِبادهِ ويعفو عن السيئات)[٢] . قال : ثم غاب فما رأيته بعد ذلك ، أو كما قال .

سمعت أبا الحسن الفارسى يقول : قال لى أبو الحسن المزين : دخلت البادية وحدى على التجريد ، فلما بلغت العمق ، قعدت على شفير البركة ، فحدثتنى نفسى بقطعها البادية على التجريد ودخلها شيء من العجب ، فإذا أنا بالكتانى - أو غيره الشك منى - من وراء البركة ، فنادانى : يا حجام ، إلى كم تحدثك نفسك بالأباطيل ؟

ويروى أنه قال له : يا حجام احفظ قلبك ولا تحدث نفسك بالأباطيل .

وقال ذو النون : رأيت فتى عليه أطمار رثة فتقذَّرته نفسى وشهد له قلبى بالولاية ، فبقيتُ بين نفسى وقلبى أتفكر ، فاطلع الفتى على سرّى ، فنظر إلىّ فقال : يا ذا النون ، لا تبصرنى لكى نرى خَلَقى ، وإنما الدر داخل الصدف ، ثم ولى وهو يقول :

تِهتُ على أهلِ ذا الزمانِ فما   أرى منهم لوَاحدٍ راسا
ذاك لأنى فتى أخو فطنٍ   أعرف نفسى وأعرف الناسا
فصرتُ حرًّا مملكاً ملكاً   مدرَّعاً بالقنوع لباسا

ويشهد لصحة الفراسة ما حدثنا أحمد بن على قال : ح ثواب بن يزيد الموصلى ، ح إبراهيم بن الهيثم البلدى ، ح أبو صالح كاتب الليث ،

---

(١) سورة البقرة آية ٢٣٥ .
(٢) سورة الشورى آية ٢٥ .

ح معاوية بن صالح عن راشد بن سعيد ، عن أبي أمامة الباهلى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله »(١) .

الباب التاسع والستون

تنبيهه إياهم بالخواطر

قال أبو بكر مجاهد المقرىء : قدم أبو عمرو بن العلاء يوماً ليصلى بالناس وما كان يؤم فيتقدم اضطرارًا ، فلما تقدم قال للناس استووا ، فغشى عليه ، فلم يفق إلا بالغد ، فقيل له فى ذلك ، فقال : وقت ما قلت لكم استووا ، وقع فى قلبى خاطر من الله تعالى كأنه يقول لى : يا عبدى ، هل استويت لى قط طرفة عين حتى تقول لخلقى استووا ؟

قال الجنيد : مرضت مرضة فسألت الله أن يعافينى ، فقال لى فى سرى لا تدخل بينى وبين نفسك .

قال : سمعت بعض أصحابنا يقول : سمعت محمد بن سعدان يقول : سمعت بعض الكبراء يقول : ربما أغفو غفوة فأنادى أتنام عنى ؟ إن نمت عنى لأضربنك بالسياط .

الباب السبعون

تنبيهه إياهم فى الرؤيا ولطائفها

قال : سمعت أبا بكر محمد بن غالب يقول : سمعت محمد بن خفيف يقول : سمعت أبا بكر محمد بن على الكتانى يقول : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عادتى — فكانت العادة قد جرت له أنه كان يرى

(١) رواه البخارى فى التاريخ والترمذى فى جامعه وغيرهما مرفوعاً .

النبي صلى الله عليه وسلم كل ليلة اثنين وخميس ، فيسأله سائل ، فيجيبه عنها — قال : فرأيته قد أقبل علىّ ، ومعه أربعة نفر(١) .

فقال لى : يا أبا بكر ، أتعرف من هذا ؟

قلت : نعم ، هو أبو بكر .

ثم قال لى : أتعرف هذا ؟

قلت : نعم ، هو عمر .

ثم قال : أتعرف هذا ؟

قلت : نعم ، هو عثمان .

ثم قال لى : أتعرف هذا الرابع ؟

فتوقفت ولم أجب ، فأعاد علىّ ثانيا ، فتوقفت ، فأعاد علىّ ثالثا ، فتوقفت ، وكان فى قلبى منه غيرة ، قال : فجمع كفه وأشار بها إلى ، ثم بسطها ، وضرب بها صـــدرى ، وقال لى : يا أبا بكر ، قل : هذا على بن أبى طالب .

فقلت : يا رسول الله ، هذا علىّ بن أبى طالب ؟ قال : فآخى عليه السلام بينى وبين على رضى الله عنه ، قال: ثم أخذ على رضى الله عنه بيدى ، وقال لى: يا أبا بكر ، قم حتى تخرج إلى الصفا ، فخرجت معه إلى الصفا ، وكنت نائما فى حجرتى ، فاستيقظت ، فإذا أنا على الصفا .

قال سمعت منصور بن عبد الله قال : سمعت أبا عبد الله بن الجلاء يقول : دخلت مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبى شىء من الفاقة ، فتقدمت

---

(١) لعل هذا شىء شعر به فى نفسه قبل أن يعرف أنه على كرم الله وجهه ولعله فى منزلة تمت إلى منزلة على بسبب ثم لعله أدرك من قربه من النبي صلى الله عليه وسلم مايدعو إلى القول وهذا منام لامقام .

إلى القبر وسلمت على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى ضجيعيه : أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ثم قلت : يارسول الله بى فاقة ، وأنا ضيفك الليلة ، ثم تنحيت ونمت بين القبر والمنبر ، فإذا أنا بالنبى عليه السلام جاءنى ودفع إلى رغيفا ، فأكلت نصفه ، فانتبهت ، فإذا فى يدى نصف الرغيف .

قال يوسف بن الحسين : كان عندنا شاب من أهل الإرادة ، أقبل على الحديث وقصر فى قراءة القرآن ، فأتى فى منامه ، فقيل له : إن لم تكن بى جافيا فلم هجرت كتابى ، أما تدبرت ما فيه من لطيف خطابى ؟

يشهد بصحة الرؤيا ماحدثنا على بن الحسين بن أحمد السرخسى إمام جامعها، ح أبو الوليد محمد بن إدريس السلمى ، ح سويد ، ح محمد بن عمرو بن صالح ابن مسعود الكلاعى ، عن الحسن البصرى قال : دخلت مسجد البصرة ، فإذا رهط من أصحابنا جلوس ، فجلست إليهم ، فإذا هم يذكرون رجلا يغتابونه ، فنهيتهم عن ذكره ، وحدثتهم بأحاديث فى الغيبة بلغنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن عيسى بن مريم عليه السلام ، فأمسك القوم ، وأخذوا فى حديث آخر ، ثم عرض ذكر ذلك الرجل ، فتناولوه ، وتناولته معهم ، فانصرفوا إلى رحالهم ، وانصرفت إلى رحلى ، فنمت ، فأتانى آت فى منامى أسود ، فى يده طبق من خلاف[1] ، وعليه قطعة من لحم خنزير ، فقال لى : كل ، قلت : لا آكل ، هذا لحم خنزير ، قال : كل ، قلت : لا آكل ، هذا لحم خنزير ، هذا حرام ، قال : لتأكلنه ، فأبيت عليه ، ففك لحيى[2] ووضعها فى فى ، فجعلت ألوكها وهو قائم بين يدى ، فجعلت

(١) الخلاف كما فى القاموس صنف من الصفصاف وليس به وهو شجر معروف بمنظره ولا ثمرة له كما قال الشاعر :

فغدا كالخلاف يورق للعـ ... ين ويأبى الأثمار كل الإباء

(٢) اللحى منبت اللحية وهما لحيان والمراد أنه فتح فه بالقوة .

أخاف أن ألقيها وأخاف أن أسترطها(١) ، فاستيقظت على تلك الحال ، فوالله لقد لبثت ثلاثين يوماً وثلاثين ليلة ما ينفعني طعام أطعمه ولا شراب أشربه إلا وجدت طعمها فى فمى وريحها فى منخرى !

الباب الحادى والسبعون

لطائف الحق بهم فى غيرته عليهم

دخل جماعة على رابعة ، يعودونها من شكوى ، فقالوا : ما حالك ؟

قالت : والله ما أعرف لعلتى سببا ، غير أنى عرضت على الجنة ، فلت بقلبى إليها ، فأحسب أن مولاى غار على ، فعاتبنى ، فله العتبى .

قال الجنيد : دخلت على السرى السقطى فرأيت عنده خزف كوز مكسور فقلت : ما هذا ؟

قال : جاءتنى الصبية البارحة بكوز فيه ماء ، فقالت لى : يا أبت ، هذا الكوز معلق ههنا ، فإذا برد فاشربه ، فإنها ليلة غمة ، فغلبتنى عينى ، فرأيت جارية من أحسن الجوارى دخلت على ، فقلت لمن أنت ؟ قالت : لمن لا يشرب الماء المبرد فى الكيزان ، وضربت بيدها إلى الكوز ، فانكسر ، وهو الذى ترى ، فما زال الخزف مكانه لم يحركه حتى ستره الغبار(٢) .

قال المزين : أقمت فى بعض المنازل بالبادية سبعة أيام لم أطعم شيئا ، فأضافنى رجل فى منزله ، فقدم إلى تمراً وخبزاً ، فلم أقدر على أكله ، فلما كان الليل اشتهيته ، فأخذت نواة أعالج بها فتح فمى ، فضربت النواة سنى ،

---

(١) سرط الطعام كنصر وفرح واسترطه ابتلعه .

(٢) هذه أحوال عجيبة ولا يحرم زينة الله أحد وقد كان الماء يبرد للنبي صلى الله عليه وسلم للتشريع وبيان السماحة فى الإسلام .

فقالت صبية من البيت: يا أبى كم يأكل ضيفنا الليلة؟ فقلت: يا سيدى جوع سبعة أيام، ثم تنغص على، وعزتك لا ذقته !!

قال أحمد بن السمين: كنت أمشى فى طريق مكة، فإذا أنا برجل يصيح أغثنى يا رجل، الله، الله!

قلت: ما لك، ما لك؟

قال: خذ منى هذه الدراهم، فإنى ما أقدر أن أذكر الله وهى معى، فأخذتها منه، فصاح: لبيك اللهم لبيك، وكانت أربعة عشر درهما.

قيل لأبى الخير الأقطع: ما كان سبب قطع يدك؟ قال: كنت فى جبل لكام ـ أو لبنان ـ ومعى رفيق لى، فجاء رجل من بنى السلاطين ومعه دنانير يفرقها، فناولنى منها ديناراً، فمددت إليه ظهر كفى، فوضع عليها ديناراً فقلبته يدى فى حجر رفيقى وقمت، فلما كان بعد ساعة إذ أنا بأصحاب السلطان يطلبون لصوصا، فأخذونى فقطعوا يدى.

يشهد لهذا المعنى ما حدثنا به أحمد بن حيان التميمى، قال: أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل، ح قتيبة بن سعيد، ح يعقوب بن عبد الرحمن الإسكندرانى عن عمرو بن أبى عمرو عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود ابن لبيد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله تعالى ليحمى عبده من الدنيا وهو يحبه كما تحمون مرضاكم»(١).

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده عن محمود بن لبيد والحاكم فى مستدركه عن أبى سعيد بلفظ كما تحمون سريقكم من الطعام والشراب تخافون عليه وسنده ضعيف.

الباب الثانى والسبعون

لطائفه بهم فيما يحملهم

سمعت فارسا يقول : سمعت أبا الحسن العلوى تلميذ إبراهيم الخواص يقول : رأيت الخواص بالدينور فى جامعها ، وهو جالس فى وسطه ، والثلج يقع عليه ، فأدركنى الإشفاق عليه ، فقلت له ، لو تحولت إلى السكن ؟

فقال : لا ، ثم أنشأ يقول :

لقد وضح الطريق إليك قصداً　　فما أحد أرادك يستدل

فإن ورد الشتاء ففيك صيف　　وإن ورد المصيف ففيك ظل

ثم قال لى : هات يدك ، فناولته يدى ، فأدخلها تحت خرقته ، فإذا هو يتصبب عرقا .

قال : سمعت أبا الحسن الفارسى يقول : كنت فى بعض الوادى فأصابنى عرق شديد حتى تعبت عن المشى من الضعف ، وكنت سمعت أن العطشان تقطر عيناه قبل أن يموت ، قال : فقعدت وأنا أنتظر تقطر عينى إذ سمعت حسا ، فنظرت فإذا هى حية بيضاء كأنها الفضة الصافية تبرق ، وقد قصدتنى مسرعة ، فهالتنى ، فقمت فزعا ، ودخلتنى قوة من الفزع ، فجعلت أمشى على ضعف وهى خلفى تنفث ، فلم أزل أمشى وهى خلفى حتى بلغت ماء وسكن الحس ، فالتفت ، فلم أرها ، وشربت الماء ، فنجوت ، قال : وربما يكون بى غم أو علة ، فأراها فى النوم ، فتكون بشارة لى بفرج غمى وزوال علتى .

الباب الثالث والسبعون

لطائفه بهم فى الموت وبعده

قال أبو الحسن المعروف بالقزاز : كنا فى الفج ، فأتانا شاب حسن الوجه عليه طمران ، فسلم علينا ، وقال : ههنا موضع أموت فيه نظيف ؟ قال : فتعجبنا وقلنا له : نعم ، فدللنا على عين بالقرب منا ، فذهب ، فتوضأ ، وصلى ما شاء الله ، ثم انتظرناه ساعة . فلم يجئنا ، فأتيناه ، فإذا هو ميت .

قال أصحاب سهل بن عبد الله : كان سهل على التخت يغسل ، وسبابته من يده اليمنى منتصبة يشير بها .

قال أبو عمرو الاصطخرى : رأيت أبا تراب النخشبى فى البادية قائما ، ميتا ، لا يمسكه شىء .

قال إبراهيم بن شيبان : وافانى بعض المريدين ، فاعتل عندى أياما ، فمات ، فلما أن أدخل فى قبره ، أردت أن أكشف خده وأضعه على التراب تذللا لعل الله يرحمه ، فتبسم فى وجهى وقال لى : تذللنى بين يدى من يدللنى ؟ قال : قلت : لا يا حبيبى ، أحياة بعد الموت ؟

فأجاب : أما علمت أن أحباءه لا يموتون ، ولكن ينقلون من دار إلى دار .

وقال إبراهيم بن شيبان أيضا : كان عندى فى القرية شاب من أهلها متنسكا ملازما المسجد ، وكنت مشغوفاً به ، فاعتل ، فأتيت فى بعض الجمات البلد للصلاة ، وكنت إذا جئت البلد أقيم عند إخوانى بقية يومى وليلتى ، فوقع على الانزعاج بعد العصر ، فأتيت القرية بعد العتمة ، فسألت عن الفتى ، فقالوا : نظنه متوجعا ، فأتيته ، وسلمت عليه ، وصافحته ، فخرجت روحه مع

الصالحة ، فتوليت غسله ، فغلطت فى صب الماء ، أردت أن أصب على يمينه صببت على يساره ويده فى يدى ، فانتزع يده من يدى حتى ذهب ما كان عليه من السدر ، فنشى على من كان معى ، ثم فتح عينيه فىّ ، ففزعت ، وصليت عليه ، ودخلت القبر أواريه ، وكشفت عن وجهه ، ففتح عينيه وتبسم حتى بدت نواجذه وثناياه فسوينا عليه ، وحثينا عليه التراب .

يشهد لصحة ذلك ما حدثنا أبو الحسن على بن إسماعيل الفارسى ، ح نصر بن أحمد البغدادى ، ح الوليد بن شجاع السكونى ، عن خالد ، عن نافع الأشعرى ، عن حفص بن يزيد بن مسعود بن خراش ، أن الربيع بن خراش كان حلف أن لايضحك حتى يعلم أهو فى الجنة أم فى النار ، فمكث لا يراه أحد يضحك حتى مات ، فيما يرون ، فأغمضوه ، وسجوه ، وبعثوا إلى قبره ليحفر ، وبعثوا إلى كفنه ، فأتى به .

فقال ربعى بن خراش : رحم الله أخى ، كان أقومنا فى الليل الطويل ، وأصومنا فى اليوم الحار ، قال: فإنهم لجلوس حوله ، إذ طرح الثوب عن وجهه ، فاستقبلهم وهو يضحك .

فقال له أخوة ربعى : أبعد الموت حياة ؟

قال نعم ، إنى لقيت ربى ، وإنه تلقانى بروح وريحان ورب غير غضبان ، وإنه قد كسانى سندساً وحريراً ، ألا وإنى وجدت الأمر أيسر مما ترون ، فلا تغتروا ، فإن خليلى محمداً صلى الله عليه وسلم ، ينتظرنى ليصلى علىّ ، الوَحى الوَحى ، ثم خرجت نفسه فى آخر ذلك ، كأنها حصاة قذفت فى ماء ، فبلغ ذلك عائشة أم المؤمنين ، فقالت : أخو بنى عبس ! رحمه الله ، سمعت رسول الله يقول : « يتكلم رجل من أمتى بعد الموت من خير التابعين »[1] .

---

(١) يبدو أنه ليس بحديث.

الباب الرابع والسبعون

من لطائف ما جرى عليهم

قال أبو بكر القحطبي : كنت فى مجلس سمنون ، فوقف عليه رجل ، فسأله عن المحبة ، فقال : لا أعرف اليوم من أتكلم عليه يعلم هذه المسألة ، فسقط على رأسه طائر ، فوقع على ركبته ، فقال : إن كان فهذا ، ثم جعل يقول — ويشير إلى الطير — : بلغ من أحوال القوم كذا وكذا ، فشاهدوا كذا وكذا ، وكانوا فى حال كذا وكذا ، فلم يزل يتكلم عليه حتى سقط الطير عن ركبته ميتا .

قال أبو بكر بن مجاهد : سمعت أحمد بن سنان العطار يقول : سمعت بعض أصحابنا يقول : خرجت يوما إلى نيل واسط ، فإذا أنا بطير أبيض فى وسط الماء ، وهو يقول : سبحان الله على غفلة الناس .

قال جعفر : سمعت الجنيد يقول : لقيت شابا من المريدين فى البادية جالسا عند شجرة ، فقلت يا غلام ، ما الذى أجلسك ههنا ؟

فقال : ضالٌ افتقدته ، فمضيت وتركته ، فلما انصرفت إذا أنا به قد انتقل إلى موقع قريب منى ، فقلت له : فما جلوسك الساعة ههنا .

قال : وجدت ما كنت أطلبه فى هذا الموضع فلزمته .

فقال الجنيد : فلا أدرى أى حاليه أشرف ، لزومه لافتقاد حاله ، أو لزومه الموضع الذى نال فيه مراده .

قال أبو عبد الله محمد بن سعدان ، سمعت بعض الكبار يقول : كنت يوما جالسا بحذاء البيت ، فسمعت أنينا من البيت : ياجدر ، تنح عن طريق أوليائى وأحبائى ، فمن زارك بك طاف حولك ، ومن زارنى بى طاف عندي .

الباب الخامس والسبعون

فى السماع

السماع : استجمام من تعب الوقت ، وتنفس لأرباب الأحوال ، واستحضار الأسرار لذوى الأشغال .

وإنما اختير على غيره مما يستروح إليه الطباع ، لبعد النفوس عن التشبث به والسكون إليه ، فإنه من القضاء يبدو ، وإلى القضاء يعود .

وأرباب الكشوف والمشاهدات ، استغنوا عنها بالأسباب الحاملة لهم تنزه أسرارهم فى ميدان الكشوف .

سمعت فارساً يقول : كنت عند قوطة الموصل ، وكان لزم سارية فى جامع بغداد أربعين سنة ، قلنا له : ههنا قوال طيب ندعوه لك ؟

قال : أنا أجل من أن يستقطعنى شخص أو ينفذ فى قول . أنا ردم كله .

فالسماع إذا قرع الأسماع أثار كوامن أسرارها ، فمن بين مضطرب لعجز الصفة عن حمل الوارد ، ومن بين متمكن بقوة الحال .

قال أبو محمد رويم : إن القوم سمعوا الذكر الأول حين خاطبهم بقوله : (ألستُ بربكم)(١) فكمن ذلك فى أسرارهم كما كمن كون ذلك فى عقولهم ، فلما سمعوا كوامن أسرارهم(٢) ، فانزعجوا ، كما ظهرت كوامن عقولهم عند إخبار الحق لهم عن ذلك ، فصدقوا .

---

(١) سورة الأعراف آية ١٧٣ .

(٢) فى النسخ الاخرى «فلما سمعوا الذكر ظهرت كوامن أسرارهم فانزعجوا» وهو الصواب .

سمعت أبا القاسم البغدادى يقول : السماع على ضربين ، فطائفة سمعت الكلام فاستخرجت منه عبرة ، وهذا لا يسمع إلا بالتمييز وحضور القلب ، وطائفة سمعت النغمة ، وهو قوت الروح ، فإذا ظفر الروح بقوته أشرف على مقامه وأعرض عن تدبير الجسم ، فظهر عند ذلك من المستمع الاضطراب والحركة .

قال أبو عبد الله النباجى : السماع ما أثار فكرة واكتسب عبرة ، وما سواه فتنة .

قال الجنيد : الرحمة تنزل على الفقير فى ثلاثة مواضع : عند الأكل ، فإنه لا يأكل إلا عند الحاجة ، وعند الكلام ، فإنه لا يتكلم إلا للضرورة ، وعند السماع فإنه لا يسمع إلا عند الوجد .

﴿ تم الكتاب بحمد الله ﴾

كلمة الناشر

أحمدك اللهم على ما يسرت لى من سبل نشر العلم الكريم ، وسهلت لى من وسائل تقديمه لطالبيه ، ويا ربنا أسبح بحمدك وأقدس لك ، ذاكراً إحسانك العظيم ، وفضلك العميم ، لقد أعنتنى على إخراج هذا الكتاب الكريم « كتاب التعرف » الذى هو حجة فى التصوف ، يدحض كل مبتدع ويهدى كل طالب منتفع ، كما أعنتنى من قبل على نشر مختلف الكتب فى التفسير والفقه المذهبى والفقه المقارن والدراسات المختلفة فى طائفة من كتب الشريعة واللغة العربية . سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

ولقد وفقتنى سبحانك لإخراج هذا الكتاب « التعرف » الذى أقدمه الآن للقراء مهذباً مصححاً منقحاً متوجاً بجهود فضيلة الأستاذ العلامة المعروف بعلمه وأدبه وهو الشيخ محمود أمين النواوى من علماء الأزهر الشريف . . الذى تعاون معى صادق التعاون ، فقدّم له مقدمة رائعة، وراجعه مراجعة صادقة ، وعلق عليه تعليقات تحدد مواضع الآيات ، وتخرج الأحاديث تخريجاً دقيقاً ، وتبين غوامض العبارات، وتنبه إلى ما عسى أن يكون من مآخذ أو ملاحظات، وإنى أقدم لفضيلته جزيل شكرى ، ولكل من تعاونوا أو يتعاونون على نشر العلم .

نسأله — عز وجل — السداد فى القول والعمل
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

فهرس الأعلام

فهرس الأبواب

الموضـــوع	الصفحة

رقم الايداع ٢٩٥٤ / ١٩٩٢
الترقيم الدولى ٦ - ١٥ - ٥١٦٥ - ٩٧٧